مكتبتنا العربية

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

٤ — مشكلة المرأة

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية أصول الدين

بعد أن تكلم الشيخ الرئيس عما يجب على الدولة من توفير عمل لكل فرد من أفراد الأمة ، ومن ضمان المعيشة المعقولة للعاجزين عن العمل أو المتعطلين الذين لا يجدون إليه سبيلا ، أخذ فى الحديث عن المرأة من ناحية الزواج والطلاق ومنزلتها من الرجل وما يناسب أن يكون لها من عمل . كل هذا ، قد تناوله بالبحث وإن كان موجزاً ، وأدلى فيه بالرأى الذى يرى حتى تقوم المدينة الفاضلة أو الدولة الصالحة على الأسس التى تجعل حظها وافراً من الاستقرار والسلام والسعادة .

وسنعلم من رأى ابن سينا فى هذه المشكلة من نواحيها المختلفة ، أن المغالين من أنصار المرأة يظلمون الحق والطبيعة وأنفسهم والمرأة نفسها حين يذهبون إلى مساواتها التامة بالرجل ، وحين يصفون خصومهم بالاستبداد والجمود على ما أورثهم الدين والتقاليد من أفكار . ذلك بأنهم سيرون فيما يلى أن الفلسفة ، لا الدين وحده ، بل وأن أرسطو المعلم الأول نفسه ، لا يريان ما يرون ، وأنهما يذهبان أحيانا إلى ضد ما يرون .

* * *

يشدد ابن سينا فى الزواج وضرورته ، لأن به كما يقول بقاء النوع الإنسانى الذى بقاؤه دليل وجود الله تعالى . ثم يذكر أن الزواج يجب أن يقع ظاهراً ، حتى لا يقع خلل فى نسب الأولاد وانتقال المواريث التى هى أصول الأموال ، وهو فى هذا كله على اتفاق مع الشريعة الإسلامية وآراء المفكرين الاجتماعيين .

ويرى بعد هذا ، على خلاف ما هو موجود فى المسيحية ، أنه يجب أن يكون هناك سبيل للفرقة بين الزوجين ، وألا يُسد هذا من كل وجه ، لأن فى منع الفرقة

أصلا بين الزوجين وجوها مختلفة من الضرر الشديد . ومن الأسباب التى يتعين معها الفرقة بين الزوجين ، فيما يرى ، اختلاف الطبائع إلى حد عدم الألفة ، وسوء الخلق فى العشرة ، مما يؤدى إلى شقاء الحياة بالمعيشة معا . ثم فيما يقول أيضا : ربما الزوجان لا يتعاونان على النسل ، وهذا مطلوب حتما من الزواج . فإذا حصل الطلاق وبدّلا بزوجين آخرين رزقهما الله ما شاء من النسل الصالح والأولاد النجباء

والذى يراه الشيخ الرئيس هنا من ضرورة إباحة الطلاق للأسباب المتقدمة ونحوها ، نراه فى كتب الفقه الإسلامى . ففى هذه الكتب ترى أن من الأسباب التى يكون معها الطلاق خيراً للزوجين معاً تباين الأخلاق ، وحدوث البغضاء بين الزوجين التى تجعل العشرة الطيبة بينهما متعذرة أو فيها عسر شديد ، وكذلك من هذه الأسباب . حدوث الريبة والشكوك بين الزوجين ، أو أن تكون المرأة مؤذية للزوج أو غيره ، أو أن يكون فى عدم الطلاق فوات ما يوجبه القرآن من الإمساك بمعروف .

وهذا الطلاق يجب فى رأى فيلسوفنا ألا يكون بيد المرأة بحال ما ، مع أن الشريعة الإسلامية تجيز أن يكون الطلاق بيدها أحياناً . إن المرأة ـ فى رأيه ـ فى الحقيقة واهية العقل ، مبادرة إلى طاعة الهوى والغضب ، وهنا يمس الشيخ الرئيس مسألة هامة لها خطرها فى كل آن . وتثور من أجلها هذه الأيام المناقشات العنيفة من وقت لآخر ، بل قد بلغ الأمر أن الخلاف من أجلها وصل إلى أعلى هيئة قضائية فى البلد وهى مجلس الدولة ؛ ونعنى بهذه المسألة مشكلة مساواة المرأة للرجل أو أنها أدنى مرتبة منه لهذا السبب أو ذاك .

ولست هنا بالذى يتعرض لهذه المشكلة من الناحية الموضوعية ، ولكنى أحب فقط أن أشير إلى أن ابن سينا يتشدد فى أمر الطلاق أكثر من الشريعة الإسلامية إن الشريعة ـ على ما هو معروف ـ أباحت أن يكون الطلاق بيد المرأة أيضاً إن شرط لها هذا الحق فى عقد الزواج ، كما جعلت للقاضى أن يوقعه ويفرق بين الزوجين بشروط وفى حالات خاصة معروفة فى كتب الفقه الإسلامى ، وإذاً ، فليس للمرأة وأنصارها أن يتهموا الشريعة بالقسوة أو تجاهل وجودها وحقوقها وبخاصة وقد أباحت أيضاً ـــ على بعض المذاهب ـــ أن تلى المرأة بعض الشئون

مكتبتنا العربية

العامة ، وإن كنت لا أقول بأن هذا هو الحق أو الرأى الراجح فى المسألة ، وحسبى فقط أن أشير كما قلت ، إلى سماحة الشريعة وعرفانها لكل من الرجل والمرأة منزلته وحقوقه وواجباته التى يصلح المجتمع برعايتها ، وأنها فى هذا كانت أشد سماحا من كثير من أساطين المفكرين والفلاسفة .

ها هو ذا أرسطو الفيلسوف الإغريقى الأشهر ، والمعلم الأول بحق ، يرى فى الكتاب الأول من كتابه « السياسة » أن المرأة أقل عقلا من الرجل ، وأقل لذلك بصراً بالأمور وإدراكا لطبيعة الأشياء ، ومن ثم يرى أن أمور المدينة - يريد الدولة - يجب أن تكون خالصة للرجل وحده ، وللمرأة أمور المنزل والأولاد تحت عناية الرجل وإشرافه ، إنه فى هذا يقول : « فالرجل ، ما عدا استثناءات مضادة للطبع ، هو الذى يأمر دون المرأة ، كما أن الكائن الأكبر هو الذى يتأمر على الأصغر والأنقص » ، كما يقول فى موضع آخر : « والمرأة لها إرادة لكن فى درجة أدنى » .

ومن هذا نرى أن مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، مشكلة عريقة فى القدم عراقة وجود الإنسان بنوعيه ، وأن للمفكرين فى كل العصور آراءهم فيها وفى الحلول التى يرونها لها ، وأن للطبيعة أيضا فيها رأيها الخاص الذى يتفق وطبائع الأشياء ، وإن من الخطأ ، وعدم فهم الواقع ودراسة تاريخ الفكر ، الزعم بأن الشريعة الإسلامية تقف فى هذه المشكلة موقف العداء للمرأة . وإنه من الخير للرجل والمرأة على السواء أن يعرف كل منزلته التى أرادها له الله وطبيعة الأمور ثم أن يحسن القيام بالواجب الذى نيط به ، وبالدور الذى جعلت له الحياة القيام به ذلك أدنى إلى الحق بلا ريب . وفيه تحقيق للصالح العام .

* * *

ذلك ، وكل حديث له خاتمته ونتيجته ، وأحب أن أشير فى هذه الخاتمة أو النتيجة إلى أنه قد وضح لنا أن هذه المشاكل التى نحس بها إحساسا شديدا هذه الأيام ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها فى المجتمع ، قد أحسها الناس جميعا منذ وجود العالم واشتد التنافس فى الحياة . وقد حاول

مكتبتنا العربية

المفكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، منذ زمن سحيق ، وضع حلول لهذه المشاكل حلول تقرب كثيراً أو قليلا من عمليات الأزمان والبيئات التى كانوا يعيشون فيها ولم يكن المفكرون المسلمون بدعاً فى هذه الناحية ، فقد تناولها كثير منهم بالبحث والدرس ، محاولين حلها على نحو به يصلح المجتمع والحياة ، ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف الإسلامى الأشهر الذى يستعد العالم الإسلامى هذه الأيام للاحتفال بعيده الألفى .

ولعل هذا مما يجعل البعض يحسن الظن بالفلسفة ، فيرى أنها لا تطلب إلا الحق والخير العام ، وقد تصيب من هذا كثيراً أو قليلا .

كما نرجو أن يكون هـــذا من شأنه أيضاً أن يجعلنا نثق بحضارتنا وقوميتنا وتفكيرنا الإسلامى ، فلا نجرى دائما وراء الغرب نستجديه فى كل شئوننا ، تاركين وراءنا ثروة كبيرة كلها بدائع وكنوز ، وقد أفاد منها الغربيون أنفسهم كثيرا ؟

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

يسمح ليعمل

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأذن للأحنف . ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع الثانى فى مشيته حتى تقدم الأحنف ، ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه . فالتفت إلى الأحنف وقال له :

« والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنما كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم ، ولا يزيد متزيد فى خطوه إلا النقص يجده من نفسه » .

وفى الأمثال من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وقال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان ، فقال له : مثلك يرضى بهذا ؟ فقال :

أهين لهم نفسى لأكرمها بهـــا ومن يكرم النفس التى لا يهينهـــا

مكتبتنا العربية

الفقه السياسي عند المسلمين

الحق الدائم للأمة ، أولياء الأمر ، مركز الحاكم

لحضرة الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

عرفت أيها القارىء الكريم ، أن أمتنا أمة مكلفة مسئولة ، وأن لها السيادة المطلقة على أرضها ، وأبنائها ، ومقدراتها ، وليس لأمة غيرها ، ولا لفرد منها . أى سلطان عليها ، لأن تنفيذ التكاليف منوط بها ، فهى المهيمنة على وسائل الحفاظ على الشرع وتنفيذ أحكامه ، ومراقبة منفذيها ، فهى بذلك تملك سلطة التشريع فيما تركه التشريع لها من أمور تجد ، أو أمور تتغير وتختلف حسب الزمان والمكان والظروف والملابسات ، ثم هى تملك هذه السلطة بحكم نيابتها عن المشرع سبحانه ، وكل ما يعرفه علماء الأصول باسم التشريع الحاجى ، أو الضرورى ، هو موضع السلطة التشريعية للأمة ، تقدر الظروف وتشرع لها بوساطة علمائها بما لا يختلف مع القواعد الكلية للإسلام ، وللأمة حق التوكيل والإنابة عنها من ترتضيه لتنفيذ تكاليفها . ولها حق الرقابة عليه : تعين حاكمها ، وتمنحه الطاعة والسلطان ، وتنفذ أوامره ، ما اعترف بحقها والتزم الحدود المرسومة له ، وتمنعه الطاعة ، وتحرمه السلطان ، وتسلب أوامره القوة ، إذا تنكر لها ، أو خرج عما عين له ، ولها أن تنصحه إذا مال مع الهوى . وتقومه إذا اعوج ، وتعزله إذا لج فى عتوه ونفوره من سلطاتها . وهى التى تقدر مصلحتها فى التولية والعزل ؛ ثم هى أمة حية قائمة ، وحقوقها ثابتة لها دائمة ، ما بقى تشريعها وما بقى فرد من أفرادها ، لا يرث عنها حقوقها إلا سيدها ومالكها يوم يرث الأرض ومن عليها ، وليس من حقها أن تتنازل عن سيادتها وسلطانها وحقوقها ، لأن سيدها الذى استخلفها لم يأذنها بالتنازل عما يملكه هو وحده ، وليس لأحد أن يدعى وراثتها ، إلا مدل بباطل ، أو مغتصب لا يرعى حدود الله.

هذا ، وتعلم أيها القارىء الكريم ، أن الإسلام هو دين الفطرة ، وهو نهاية الشوط فى التشريع السماوى لصالح البشرية ، وأنه جاء وقد اكتمل العقل البشرى ،

مكتبتنا العربية

وارتقت الإنسانية إلى أرفع مما كانت عليه قبله فى الإدراك والتعقل ، وأنه جاء مصلحاً منظما . فعرض لشتى نواحى المجتمع البشرى ، وراعى كل احتياجاته ، واستعرض العادات والتقاليد ، وأشباه النظم التى وجدها ، فعدل منها ما عدله ، وهذب ما هذبه ، وألغى ما لا يتفق مع روحه وسمو مبادئه ، وابتكر ما ابتكره من نظم وتشريعات غير معهودة من قبله ، وكثيراً ما تكون الأمور التى هذبها ، أو ، شذبها ، الإسلام ، أو سلبها بحالها ، من الأمور الضرورية التى لا تستغنى عنها الإنسانية بحال من الأحوال فى أى زمان أو مكان .

ولقد وجد الإسلام قبائل العرب ـ كغيرها من شعوب الله ـ تخضع كل منها لزعيم من بينها له صفات خاصة ، تنفذ أمره ، وتتبع رأيه فى السلم والحرب ، وتعترف برياسته عليها وتعطيه حق تدبير أمرها مع جماعة من كبارها يشتورون معه ، ويتعاونون معه على ما فيه خير القبيلة . وهـذا تقليد إنسانى مرت به جميع الشعوب البشرية ، ولقد احترم الإسلام هذا التقليد الذى صاحب البشرية فى تطورها فى العصور المختلفة . فجعل كبار القوم ـ وهم عادة أهـل العلم والرأى والخبرة والشرف ـ جعلهم موضع احترام الجميع ، وجعل لهم حق الطاعة على الجميع ، كما وضعهم فى مقدمة الأمة فى تحمل المسئولية ، انظر معى إلى أى أسرة ، أو جماعة أو أمة !! فاننا لا نجد فى مكان صدارتها ، إلا بطل أو عالم أو خبير بالحياة سديد الرأى ، أو ثرى قدّمه ماله وعصبيته . هؤلاء هم كبار القوم الذين يسمع لهم ، ويعمل الناس بارشادهم ، وهم الذين سماهم القرآن الكريم أولياء الأمر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم فى قوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وحول هاتين الآيتين الكريمتين ، اضطرب كلام الشراح سيما فى عصر الجمود ، والعصر الحديث ، فى تفسير أولى الأمر ، تبعاً لشدة أو ضعف ضغط السياسة التى لم تدع شيئا إلا أفسدته ، حتى تطاولت إلى أقدس المقدسات وهو الدين . . ! فقال قوم : هم الحكام . وقال قوم آخرون : هم العلماء ، وقال غيرهم : هم أهل المكانة والصدارة من الزعماء والعلماء وأهل الرأى والخبرة ، ويخلصنا من هذا الاضطراب الذى أملته ظروف خاصة . إذا نحن علمنا أن العنصر الأخلاقى عنصر أساسى فى الشريعة الإسلامية التى تأخذ

مكتبتنا العربية

المسلمين بأفانين من التربية والتأديب لتخرج منهم أمة وسطا . وخير أمة أخرجت للناس ، ولتصنع منهم نمطا إنسانيا عاليا تعتز به البشرية ، وهـذا العنصر هو أهم ما تميزت به شريعة الإسلام عن مختلف الشرائع السماوية والوضعية ، والإسلام يسمح بتقبل التقاليد الإنسانية التى لا تتنافى مع مبادئه ، وقد علمت أن طاعة كبار القوم من أهل المكانة والعلم والرأى والتجربة تقليد إنسانى ، وهو لا ينافى مقررات الإسلام ، وهؤلاء هم أهل الذكر « واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، وهم أولياء أمر قومهم ، ورواد مصالح أهلهم ، والإسلام يريد أن يربى الأمة على طاعة كبرائها المجربين فى غير معصية الله ، وكل فرد إذا وجـــد فى نفسه القوة والكفاية أن يكون من هؤلاء ، حاكما كان أو محكوما ، وإذا كانت الآية الأولى عامة قررت قاعدة كلية ، وحمل أولوا الأمر فيها على الحكام ، فان الآية الأخرى تتحدث عن « أولى أمر » إلى جانب الرسول صلى الله عليـه وسلم لهم قدرة على الاستنباط ، واستتباع الناس ، ومعروف أنه لم يكن مع الرسول حاكم أو حكام يشاركونه فى حكم المسلمين ! فواضح إذاً أن هؤلاء لم يكونوا غير كبار المسلمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وزعماء القبائل ، وأهل البصر والتجربة ، ممن يتبعهم الناس ، ويسمعون لهم . وينقادون لرأيهم عادة أو عصبية .

وأولوا الأمر ـ هؤلاء ـ هم المعبر عنهم عند علماء الإسلام بـ (أهل الحل والعقد) وهم من ذكرنا صفاتهم .

وقد ذهب الى هذا الرأى جماعة من خيار السلف والخلف منهم الإمام الرازى ، والإمام التفتازانى (السعد) والإمام النووى والإمام الرملى والإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ رشيد رضا والأستاذ شلتوت [1] .

ولما كان هؤلاء (أهل الحل والعقد) هم رءوس قومهم ، وطلاب صلاحهم ، وأهل رأيهم وخبرتهم ، ووجـودهم ضرورى فى كل جماعة تبحث عن خـيرها ، ولا غنى للجماعة عنهم . وقد صقلهم الإيمان . وحبب الإسلام إليهم التفانى والرغبة

---

(١) راجع تفسير الرازى لسورة النساء فى الآيتين ، ورأى السعد فى المقاصد حـ ٢ ص ٢٧٢ ، وشرح المنهاج للرملى حـ ٧ ص ١٢٠ ، وتفسير المنار حـ ٥ ص ١٨٠ ـــ ٢٤٢ ، وفقه القرآن والسنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

مكتبتنا العربية

فى صالح الإسلام والمسلمين ، وأصبح ذلك هدفهم الأول ، فإن الله قد أوجب طاعتهم على أفراد الأمة فى كل ما لا يضر الدين والدولة ، وما داموا أهلا لثقة المؤمنين .

وقد كانت هذه الطبقة من المسلمين فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تكون ما يشبه المجلس الشورى للرسول عليه السلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فيما تستلزمه دنياهم ومصالحهم مما لا شرع فيه يلزمهم باتجاه معين ، وكثيرا ما رأينا القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر بعض هؤلاء المستشارين فى غير مسألة ، استشارهم عليه السلام يوم الحديبية ، ويوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفى الحجاب ، وأمور الحرب والمعاهدات ، وأوضح مثل نتقدمه لذلك استشارة الرسول لهم فيما يجب عمله مع أسرى بدر من المشركين ، وما نزل فى ذلك من قرآن كريم . ونخلص مما قدمته الى أن كبار القوم من زعماء وعلماء وأهل خبرة فى نواحى الحياة المختلفة . هم أولياء الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وهم لسان الأمة الناطق برغباتها والمعلن لسخطها أو رضاها ، أو هم وكلاء الأمة الدائمون ، يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ، ويوجه سياستها فى السلم والحرب . ويراقب حكامها ، ويرشح من يراه أهلا لقيادة المسلمين ورياستهم ، ويقدمه للأمة لتوكله بالبيعة ليصرف شئونها ، وهؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وهم الذين أوجب الله على رسوله الكريم مشاورتهم « وشاورهم فى الأمر » وأول واجب عليهم هو ترشيح الحاكم وتزكيته ، وتقديمه للبيعة ، فإن رأته الأمة أهلا لثقتها منحته رضاها ، وبايعته ، وإذا ظهر فى المرشح عيب خفى عن الكبار يطعن فى أهليته ، فمن حق الأمة أن ترده إن شاءت ، والمسلمون جميعا أهل للاختيار بشرط الكفاية والصلاح والقدرة على استتباع الناس ، لا يختص الحكم الإسلامى ببيت خاص ، أو قبيلة خاصة أو شعب خاص ، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ومن لم يتقدم به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ولو جاءت الأعاجم بالعمل وجاء العرب بغير عمل ، لكان العجم أحق بمحمد يوم القيامة كما يقول عمر فكل من توفرت فيه الكفاية أهل للحكم إذا ارتضته الأمة لقيادتها ، وله عليها حق الطاعة ما دام ملتزما لدستورها ، فإن تحلل منه ، فهى فى حل من طاعته .

مكتبتنا العربية

ومن الملاحظ دائما أن الحاكم الذى تختاره الأمة يكون عادة واحداً من أهل الحل والعقد ، وأيضاً فأن أهل الحل والعقد يرشحون دائما فرداً منهم ، وإذن فهناك احتمال الاتفاق بين هؤلاء الكبار على استغلال الأمة ! ولهذا يحتاط الإسلام لما عساه يحدث من تآمرهم مع الحاكم ، وهو منهم على الأمة واستغلال نفوذهم ومكانتهم لمصالحهم الخاصة ، هم بشر غير معصومين ، وليس لدى الإسلام ما يضمن له أن يظل هؤلاء الكبار . كما كانوا فى عهد الرسالة . يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، والقلوب تتقلب ، والنفوس تتغير ، ونظرتها إلى الحياة تتطور ، وروح التدين قد يضعف أو يتلاشى . وعندئذ لا يزع الشخص قرآن ولا سلطان ، فهل توضع الأمة فى مثل هذا الظرف تحت رحمة هؤلاء الكبار ؟ لا . ما كان للإسلام أن يكبل الأمة بهذه القيود ويخضعها لفئة منها هم خدامها ، لأن الإسلام قد احترم الأمة ، وخلق لها بالتكليف شخصية معنوية دائمة . ومنحها السيادة على نفسها ومقدراتها ، ووكل اليها اختيار خدام مصالحها ، ولهذا يضع الإسلام الأمة فى أعلى القمة على رأس الحاكم ومجلس شوراه (أهل الحل والعقد) فهم جميعاً تحت رقابة الأمة . وكل فرد من الأمة مسلط عليهم ، ومن حقه مراقبتهم ، بسلطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا تستعبد الأمة وتذل لفرد أو أفراد من أبنائها ، وحتى لا يكون هناك مجال لتسخيرها لمصالح الحاكمين ، إذا فسدت الضمائر وتواطئوا على استغلالها لصوالحهم الخاصة ، ولهذا وضع الحاكم ومستشارو تحت سيف مصلت على رقابهم هو سيف الرقابة الشعبية . وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن غيره من النظم البشرية قديمها وحديثها .

إذن فمركز الحاكم مركز دقيق محفوف بالأشواك والأخطار ، هو خادم مسئول عن سيده أمام سيده وأمام خالقه مسئولية دنيوية وأخروية ، وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب للناس : « إن الله ابتلانى بكم وابتلاكم بى » « إذا كنت فى منزلة تسعنى . وتعجز عن الناس . فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة الناس » « إنى والله لست بملك فأستعبدكم . ولكنى عبد الله عرض على الأمانة ، فإن أنا أديتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وتروا . سعدت بكم ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتى شقيت بكم » ولما أقسم عامل الرمادة ألا يذوق سمنا

مكتبتنا العربية

ولا لحما ولا عسلا ولا لبنا ، وأراد بعض الناس صرفه عن قسمه قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني مامسهم ؟ بئس الوالى أنا إذا شبعت وجاع الناس ! » ولما قال له الأحنف بن قيس : اتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قيلا ولا قالا ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئاً ، قال رجل : كيف تقول لأمير المؤمنين اتق الله . غضب عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم » ! !

ويقول عن أموال المسلمين : « والله ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله . . » وكان يرى ان ظلم الحاكم مسقط لولايته ، وكان ينادى فى كل موسم حج « من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دونى » وبهذه الروح قال لعمرو بن العاص : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذا المنهج وتلك المبادىء هما فى الواقع صدى لقوله تعالى لرسوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » فمهمة الحاكم حسن الارشاد وتحقيق العدالة وقيادة المجتمع قيادة رشيدة إلى الخير والجمال ، والسلام والكمال ، وإذا كان من حقه أن يكون عام السلطان لمسئوليته عن كل شىء ، فليس له أن يسيطر ويستعبد الناس ، لأنه واحد منهم . وهم الذين قدموه ، وله ما لهم . وعليه حمل أثقل من أحمالهم ، ومنزلته منهم كمنزلة ولى اليتيم منه ومن ماله ، فليس لهذا على اليتيم سيادة ، وليس له أن يأكل من ماله إلا إذا كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، ابقاء حسن إرشاده وحسن رعايته ، وهكذا أحكم الإسلام وحدة الأمة ، وحقق بهذا التنظيم والتعاون والتضامن ، الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو سر حيوية الإسلام السياسية ، وسر قوة الحكم الإسلامى فى العصور الأولى ، وسر صلاحية السياسة الإسلامية للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وقدرتها على حل مشاكل العصر الحاضر .

وللكلام بقية ، فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم .

مكتبتنا العربية

دراسات فى القرآن

مـــوسى الـكليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

القصص فى القرآن باب واسع ، يحتل مكانا فسيحا ، وينال قسطا كبيراً ، ذلك أنه غرض جليل الفائدة ، غزير المـادة ، عظيم الخطر ، بالغ الأثر ، سائغ العرض ، محبب إلى كل نفس من الغلام الناشى ، إلى الشيخ الفانى ، كل يجد فيه السلوى ، ويتخذ منه العظة العظمى . وفى قصص هـذا الكتاب السماوى دقة تخير لمـا ينفع ، وأعظم تحر لمـا وقع ، فهو أصدق الحديث ، وأحسن القصص ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولـكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

ولو لم يكن فى هذا القصص إلا دلالته الحقة على صدق هذا النبى الأمى الذى نشأ يتيما فى مكة يجول بين شعابها الجاهلة ويدرج فى ربوعها الغافلة ، حيث لا معلم ولا موجه . ثم هو بعد يتحدى أهل الكتب السماوية ، ويحاج ذوى المعـارف والثقافة فى مختلف النواحى فيبهرهم ويصرعهم ، فمن أين كان لذلك اليتيم ناشىء مكة أن يعرف أن الله كتب فى التوراة أن النفس بالنفس ، والعين بالعين إلى آخر القصاص ؛ أو يعرف أن الرجم فى التوراة ، ويتحدى أحبارهم لإثبات ذلك مثلا ؛ بل من أين هـذا القصص الثابت الصادق الذى تحدى به أمم الأرض ورواتها ، ولا سيما أرباب الكتب المقدسة ، فما حاول أحد أن يكذبه ، وهم الأعداء الأشداء الذين أعيتهم الحيل فى صراع محمد والقضاء عليه ؟؟؟ أليس فى ذلك دلالة على صدقه فى دعوى الرسالة وأن هذا العلم من لدن الله ؛ وفى الكتاب الكريم : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ، إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » وفيه أيضا : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولـكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت

مكتبتنا العربية

ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك » .

ردد الله سبحانه فى القرآن الكريم كثيراً من شئون بنى إسرائيل فى ماضيهم وحاضرهم ، وأنبأهم بدخائل نفوسهم ، وكشف لهم طائفة من عيوبهم ، وساق عدة من أخبار نبيه الكليم قبل الرسالة وبعد الرسالة . يرددها فى ألوان مختلفة فى لغة الواثق المتثبت ، وجرأة العليم المتحقق ، وقد أحصيت لها خمسة وعشرين موضعا فى الكتاب الكريم ، بعض معانيها يتكرر مع بعض آخر ، وهو الأكثر الأغلب وبعضه ينفرد به موضع واحد ، كقصة بقرة بنى إسرائيل فى سورة البقرة . وقتل النفس التى تدافعوا فيها أيضا ، وكقصة قتال الجبارين فى المائدة ، وكقصة قارون فى القصص ، وكقصة الخضر وموسى فى الكهف وهذا التكرار فى الكتاب من مزاياه الخطيرة . ودلائل إعجازه المشرقة المنيرة . فياليت شعرى أى كتاب سوى القرآن سلك هذا المسلك فلم يسخف ، وتطاول إلى ذلك الرقى فلم يهن ولم يضعف لقد كان جديراً أن يختلف أسلوبه ، أو تفتر بعض عباراته ، أو تجف خصوبته أو تخف بلاغته ، أو تمر حلاوته ، أو تملح عذوبته ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً .

على أن فيه من التشويق والاستطراف ما لا يخفى ، فهو يكمل فى بعض المناسبات ما لم يتم فى مناسبة أخرى .

ولعمر أبيهم لو كان الأمر كما يزعمون لسبق به خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من أهل اللسان ، وأصحاب الذوق ، وهم الذين كانوا يلتمسون عثرة جده بكل حيلة وبخاصة أنه تحداهم بالقرآن وألح فى التحدى حتى أصمهم وأعمى أبصارهم .

ذكر الله سبحانه موسى الكليم فى خمسة وعشرين موضعا من كتابه الكريم فى هذه السور : البقرة ، المائدة ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ، الكهف ، طه ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، السجدة ، الأحزاب ، الصافات ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الاحقاف ، الذاريات ، القمر ، الصف ، النازعات .

أما سورة البقرة فقد تناولت الآيات الكريمة (٤٧ - ٩٣) توجيه الخطاب إلى بنى إسرائيل الذين كانوا يسلكون مع نبيه صلى الله عليه وسلم مسلك الجحود

مكتبتنا العربية

ويعاملونه معاملة لا يصدر مثلها من مثلهم ، فذكرتهم نعم الله سبحانه وفصلت نواحى من ذلك الإنعام ، من ذلك تنبيه القوم بما كان لبعض أسلافهم من ماض سيء فيه مثلات وعظات ، تأبى على العاقل الموفق أن يتورط بعدها فى خروج على رسول عظيم ، أرسله الله يعلمهم ، وقامت عليه الدلائل فى كتبهم ، ثم هى تحمل موجب الإيمان به والتقدير له من قبل أن ذلك التاريخ التفصيلى البعيد مداه ، المندثرة آثاره من أقوى الدلائل على أنه وهو هذا الأمى المعروف رسول من عند الله . على أن بين الآيات الكريمة استطرادا ، فالآية ٤٩ تذكرهم بنعمة الله عليهم إذ أنقذهم من الكرب العظيم من فرعون وآله ، وكانوا يذيقونهم سوء العذاب ، يذبحون الذكور من أبنائهم ويستبقون الإناث ، ذلك أن الشعب الإسرائيلى كان فى مصر عنصرا أجنبيا بين القبط ، بدأ حياته فى مصر من عهد يوسف وإخوته ثم أخذ ينمو ويتزايد ، وهو شعب جبار عارم شديد الأثرة والاعتداد فأخذ القبط يستذلونهم بالأعمال الشاقة ، ولم يكن ذلك ليقلل من شوكتهم ، فلما كان عهد فرعون ذلك المذكور فى القرآن أشار عليه القبط بأن يأمر القوابل بقطع دابر الذكور منهم بأن يذبحوهم وقت الولادة ، وهو بلاء عظيم حقا ، والمعنى مرو فى سور كثيرة مع بعض التفصيل فى أوائل سورة القصص آية (٤ ، ٥) وفى الآية ٥٠ تفصيل لبعض نواحى النجاة من آل فرعون مع طى ما كان من ولادة موسى وما جرى عليه إلى عهد الرسالة مما تكفلت به سورة القصص وطه والنمل كما ستراه إن شاء الله ، فالآية تنص على أن الله فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون بمرأى منهم ، والمعنى مفصل فى الآيات (٩٠ - ٩٣) من يونس والآيات (٧٧ - ٧٩) طه ، والآيات (٥٢ - ٦٦) الشعراء ، والآيات (٢٢ - ٣١) الدخان ، وفى شرح بعض القرآن ببعض متعه ومنفعة وإيمان .

وتعود آية ٥١ من سورة البقرة فتشير إلى مواعدة الله سبحانه عبده موسى بإيتاء التوراة بعد حادث النجاة فقد خلصوا من شواغل تلك المزعجات من فرعون وقومه وما كانوا ينالونهم به قبل موسى وبعده ، واستعدوا للتشريع من الله يسيرون على نهجه . فأمر الله سبحانه موسى أن يجيء إلى الجبل بعد أربعين ليلة ليأخذ التوراة « فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » .

« الحديث متصل »

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فاستوى جالساً ، ثم قال : أتحفظ فى هذا شيئاً ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، كان الفرزدق — لما قال عدى : تزجى أغن كان ابرة روقه — قال لجرير : أى شىء تراه يناسب هذا تشبيها ؟ فقال جرير : قلم أصاب من الدواة مدادها ؛ فما رجع الجواب ، حتى قال عدى : قلم أصاب من الدواة مدادها ، فقال لجرير : ويحك لكأن سمعك مخبوء فى فؤاده ! فقال جرير أسكت شغلنى سبك عن جيد الكلام [1]. ثم قال الرشيد : مر فى إنشادك ، فمضيت حتى بلغت قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كا من أمة إصلاحها ورشادها

قال الفضل : كذب ومابر ؛ قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا ؟ قلت : ذكرت الرواة — يا أمير المؤمنين — أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! قال : مر فى إنشادك ؛ فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

لم تأته الأسلاب إلا عنوة غصبا ، ويجمع للحروب عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بعزم وحزم ، لا يعرض بينهما وكل ولااستذلال : قال : فماذا صنع ؟ قلت — يا أمير المؤمنين — ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله الله ؛ قال : أحسبك وهمان . قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردنى أمير المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكا من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكننى أعلم أن الرجل لم يكن يخطىء فى مثل هذا . قال الأصمعى : وهو — والله — الصواب . ثم قال : مر فى إنشادك فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلمت ، حتى ما أسائل عالما عن حرف واحدة لكى أزدادها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أن جريرا لما أنشد عدى هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين . . .

---

[1] رويت فى هذا رواية أخرى آنفا عن الأغانى ، وهى عندى أرجح مما هنا ، وإن صححوها بأن الممدوح شغل عن الشاعر بعد أن أنشد الشطر الأول فترة تسع سؤال الفرزدق وجواب جرير . والله أعلم .

مكتبتنا العربية

قال الرشـــيد : والله إنه لنقى الكلام فى مدحه وفى تشبيبه ؛ قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العـــداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن . ثم التفت إلى فقال : ما حفظت له فى هذا الشعر شيئاً حين قال :

أطفأت نيران الحروب ، وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادهـــا

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين ، أنه حك يميناً بشمال مقتدحا بذلك ، ثم قال : الحمد لله على نعمة الإسلام .

* * *

وبعد أن استنشده لذى الرمة ، وللشماخ ، قال : أمسك . ثم قال : استغفر الله (ثلاثا) أخّر قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً فى أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك : ثم التفت إلى الفضل فقال : الكلام هؤلاء ديباج الكلام الحسن ، وإنه يزيدك على القدم جدة وحسناً ؛ فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الاسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! ثم قال : يعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك ، مخاطبا حليلته ، مفتخراً عليها بطول السرى فى اكتساب المغانم :

أجِدّك ، هل تدرين أنْ رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر

صبرت لهـا ، حتى تجلت بغرّة كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرأيت ! ما ألطف ما جعلهما معدنا لكمال الصفات ومحاسنها ، ثم التفت إلى وقال : أجد ملالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا هذه ، فأقم عنده . مسامراً له ... ثم قال : يا غلام ، على بصالح الخادم : فقال : يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم فى ليلته هـذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين . فدعا له بتسعة وعشرين ألفاً يقبضها من غده . قال الأصمعى : فما صليت الظهر ، إلا وفى بيتى تسعة وخمسون ألف درهم !

أما بعد ، فقد سقت هذا الحديث الذى ليس لى فيه إلا الجمع ، لا أقصد من ورائه أن أترجم لعدى ، فما أكثر تراجم الرجال فى السوق ! . وإنما قصدت إلى نشر ما حواه ، من رائع الأدب ، وبارع النقد ، وعناية خلفاء المسلمين بهما ؛ واتفاقهم فى ذلك على اختلاف مذاهبهم فى الدين والسياسة والاجتماع والثقافة ؛ وحذقهم للنقد دراية ورواية ؛ وبصرهم بسمات الجمال الفنى فى قديم الشعر وحديثه ، بصر الباحث الخبير الذواقة .

فهذا الوليد بن عبد الملك ، أوسع بنى مروان رقعة ملك ، وأوفاهم حظاً من الشعراء ، لا يصرفه تعريض جرير بابن الرقاع . ولا نقد كثير له فى مجلسه وانقطاع عدى وهزيمته ، عن إدنائه ، والدفاع عنه ، والاختصاص به ، لما يلمسه من قوة فنه . فى مدحهم ، ورثاء موتاهم ، كما قال .

وهذا الرشيد ، خصم الوليد وقريعه ، وجبار بنى العباس ، لا تصرفه العداوة الطبيعية بين أمية وهاشم فى القديم والحديث ، ولا يصرفه وزيره الفضل بن يحيى بلومه الذى لا يخلو من عنف ، عن سماع قصيدة عدى فى مدح خصمه الوليد ، ولا عن روايته هو نفسه ، لتلك الكلم النوابغ ، التى أرسلها الوليد عقب سماعه لكل بيت نادر ، وللحوادث التى اتصلت ببعض أبيات القصيدة ؛

يقول الرشيد للأصمعى : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توهما فاعتادها . فيقول الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟! لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ! فيقول الرشيد : ويحك ! إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ، ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم : وللممتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية !

ثم يعلل الرشيد مبلغ عنايته بالشعر القديم ، بهذا الحكم العادل القاطع : « لكلام هؤلاء « القدامى » ديباج الكلام الحسن ، وانه يزيدك على القدم جدة » .

ثم يقول عن شعر المحدثين : « فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الأسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! » .

أنظر إلى هذه الدقة ، وهذا النفاذ ، ثم أخبرنى : أليس كلام الملوك ، ملوك الكلام ؟!

مكتبتنا العربية

فى صحبة المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

حينما نستنبىء التاريخ نجد أنه قد ضم فى صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز ؛ ويستوى فى ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب ، فنحن نجد فى الأنبياء مكفوفين مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام . نعم قد وقع خلاف فى جواز العمى على الأنبياء ، فمنعه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك ، ولأنه لم يرد نص قطعى الدلالة بعمى إسحق وشعيب ، ويقول البعض الآخر : فكيف يقول الله عن يعقوب : « وابيضت عيناه من الحزن » وقوله عنه : « فارتد بصيرا » ؟ . إن هذا يفيد سبق العمى . ولا ينفع التأويل بأن قوله « ابيضت عيناه » كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع .

ومن أشراف العرب وعظمائهم قبل الإسلام مكفوفون منهم عبد المطلب ابن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وكلاب بن مرة ومطعم بن عدى ، وغير هؤلاء .

ومن كبار الصحابة فى الإسلام مكفوفون ، نذكر منهم أبا قحافة والد أبى بكر الصديق وكعب بن مالك الأنصارى وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد ابن أبى وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة ومخرمة ابن نوفل وعبد الله بن عباس : وتراجم هؤلاء مبسوطة فى مختلف المصادر القديمة والحديثة ، وهى تفيض بالمآثر والمفاخر .

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبى رباح وأبى هلال الراسبى وقتادة بن دعامة وأبى عبد الرحمن السلمى ، وهؤلاء معارف فى تاريخ الإسلام وليسوا بنكرات ! . . .

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون ، وحسبك أن تتذكر هنا هذه

مكتبتنا العربية

الأسماء الخالدة : الشاطبي ، الترمذى ، النيسابورى ، العكبرى ، الشنترى ، أبو زكريا البغدادى .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون حسبنا منهم هنا علمان لا يخفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعرى وبشار بن برد .

وفى التاريخ القريب نجد كثيرا من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإبيارى ومحمد المعداوى ومحمد حسنين البولاقى (والد المرحوم أحمد حسنين باشا) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابهين نجد مكفوفين . فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذى لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولا عن الإنتاج الأدبى الهائل . ولا عن مركز الوزارة نفسه . . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين ، فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع فى دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات . وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلائى ، كان زميلا لنا فى الدراسة الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى انجلترا يتلقى العلم فى معاهدها ، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة فى سبيل الحصول على درجاته العلمية الفائقة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الأسماء بعد أن نظمناها ، وقد كانت مبثوثة متفرقة فى شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جميعاً ولدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم ولد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يعدون فى ثبت المكفوفين .

* * *

وكف البصر كما نريد أن نؤكد فى الأذهان ليس إلا نقصاً حسياً فى ناحية من نواحى الجسم . ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلها أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف

مكتبتنا العربية

لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه فى حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللمس ، والسمع والنطق والفهم ، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة يلمسها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ، ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والنجوى الخفية ، ومن حدة نطقه أنه يكون جهير الصوت يسمع الجم الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، ويفزع الأسماع بنبراته ، ومن هنا قال ابراهيم بن هانىء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت » ، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأعجل فى التحصيل وأدق فى التمييز العقلى من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون فى الخياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تبيانه فى مستقبل الكلام .

ولقد قال صلاح الدين بن أيبك الصفدى : « قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال :) والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر ، فيقع على ما شرد من حافظته . وفى المثل : أحفظ من العميان : أورده الميدانى فى أمثاله » .

ولا يحسبن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلهم أسبق من سواهم فى الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سلبت أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنى منعت النظر إلى ما يلهى . وعوضت الفكرة فيما يجدى . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ففى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى . وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم كالسيف مأمور

وقال الخريمى الضرير :

فإن عينى خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبى ، ولكنما أرى نور عينى لقلبى سعى

مكتبتنا العربية

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته فكان ذلك من الله خير تعويض ! . . . وقال أبو على الأعمى :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يذهب الله من عينى نورهما فإن قلبى بصير ما به ضرر
أرى بقلبى دنيـــاى وآخرتى والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

ومما يزكى هـذه البصيرة فى الأعمى ما جاء على لسان النبوة فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، وهى فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا وجلداً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل : فأعطى ناقة عشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس . قال : فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم : فأعطى شاة والدا ، فأنتج هذان وولّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل . ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال (الملك) له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس

مكتبتنا العربية

فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبيك !...

أرأيت كيف أجدى المعروف فى المكفوف ، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قرينيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخران ؟... أليس فى ذلك إيحاء من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟...

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع يلى النكاح ، ويكاتب ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويجتهد فى الأوقات والأوانى ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره ، ويصح أن يكون وصيا ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائدا . ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائدا .

واختلف القدماء فى رؤية الأعمى للمنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذى يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبصار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمه بمانعة من أن يحلم أحلاما سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

مكتبتنا العربية

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

قد تقدمت الصناعة فى ظل الحضارة الغربية المادية ، غير أن العبقرية المحمدية التى لا نظير لها لم تغفل مسائل العمل والصناعة ورأس المال ، وقد حرم الإسلام الربا وبهذا هاجم بعنف الرأسمالية . كما أنه فرض بمقتضى قانون الزكاة ضريبة على الأغنياء يؤدونها لمصلحة الفقراء . وقد كانت الأرض على عهد محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مورد للعمال ، وكانت الأرض فى ظل الإسلام — كما تبين — ملكا للأمة . وأما الصناعة القليلة التى كانت قائمة قبل بداية عصر العلم فقد كان يتولى أمرها إما الفقراء بأنفسهم وإما العبيد خدمة لسادتهم الأوتوقراطيين الطغاة . وكان الذين يتولون أى شأن من شئون التجارة أو الصناعة - قبل مجىء الإسلام - ينظر إليهم نظرة احتقار من قبل الأرستقراطيين ، وأما العبيد الذين كانوا يمثلون حينئذ الطبقة العاملة فقد كان سادتهم الرأسماليون يعاملونهم معاملة العبيد ، وقد مارس النبى بنفسه التجارة قبل البعث بالرغم من أنه سليل أنبل أسرة عرفتها العرب ، وكان محمد باعتباره النبى الصادق المعترف به ، سيد الجزيرة العربية والعالم الإسلامى قاطبة ومع ذلك فقد كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ، وأجرأ خطوة اتخذها نحو الاشتراكية الصناعية تتمثل فى أنه رفع منزلة العبيد إلى مستوى الأحرار ، وجعل الرقيق أنصاره ورفاقه ، وأمرهم على الجيوش وغيرها وصاروا فى كثير من الأحيان أعضاء فى الأسرة التى كانت تعاملهم قبل الإسلام معاملة الأنعام . كما أضحى العبيد شركاء لسادتهم فيما يملكون . والواقع أن الخطوات التى اتخذها محمد لتحسين أحوال العمال على عهده لم يتجاوزها أحد فى التاريخ الاقتصادى للعالم ، فعمال القرن العشرين الذين يعدون العمود الفقرى للتقدم والرخاء الذى تتمتع به أوربا الماركسيه . . . وعمال المستعمرات البريطانية وعمال التعدين والمناجم فى الترنسفال . . . يعاملون أسوأ مما كان يعامل أولئك الذين كانوا يعرفون بالرقيق فى ظل الفترة الاشتراكية من الحضارة الإسلامية . والحق أن نظرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الاشتراكية كانت أسمى وأنبل ، وأن الأسلوب الذى اتخذه ليثبتها فى النفوس لتكون عملية أيسر

مكتبتنا العربية

من الأسلوب الذى لجأ إليه زعماء الاشتراكية فى الوقت الحاضر . على أن مفتاح الاشتراكية المحمدية هو التقدم الروحى والأدبى للشعب ، فاشتراكيته كانت أخلاقية فى حين أن الاشتراكية الحديثة مادية . والاشتراكيون يطالبون اليوم بأن تنقل ملكية الأراضى ورءوس الأموال إلى الدولة فوراً معتقدين وقد تملكهم الحماس أنه من الميسور تحقيق هدفهم ، وأنهم عندما ينجحون فسينتج عن ذلك تحسين مستوى حياة الشعب ، والواقع أنهم مخطئون فى زعمهم فهم لا يدركون أن خصومهم تؤيدهم قوة عسكرية أشد كما تبين من مسلك الحكومة المسماة بحكومة الأحرار إزاء عمال السكك الحديدية المضربين ، وحتى إذا نجح الاشتراكيون عن طريق اللجوء إلى العنف وإثارة العواطف كما فعلوا فى فرنسا منذ حين فلن يكون فى وسعهم تحسين حال الشعب أو السير قدما بقضية الاشتراكية طالما لم يسم رجال الدولة من الناحية الخلقية ، فما لم تتألف الدولة من رجال يحترمون حقوق سيادة الأفراد وما لم تكن عواطف الانسجام المتبادل والأخوة بين الأفراد هى الأساس للاشتراكية الحقة فلن يتحقق قسط حلم الاشتراكيين المحدثين . وإذا حول زمام السلطة على الأراضى ورءوس الأموال إلى المجتمع أو الدولة المؤلفة من أفراد يعتقدون فى الحقوق والمزايا الخاصة والذين ليس فى وسعهم القضاء على أفكار العنصر والطبقة فستصير أحوال الشعب حينئذ أشد سوءاً مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وإذن ففكرة تحويل الأرصدة ورأس المال إلى الدولة لا تكفل وحدها صبغ إدارة الدولة بالصبغة الاشتراكية ، أو ليست جميع الأراضى فى الهند ملكا لحكومة الهند ؟ أو ليست أسلاك البرق والمسرة وبعض خطوط السكك الحديدية ملكا للدولة ؟ أو ليست دولة الهند تستخدم عدداً كبيراً من العمال فى أعمال الرى ومصانعه حيث يجرى ذلك على أسس تجاريه ؟ أو لم تكن معظم الصناعة ورأس المال فى يد الدولة إبان نظام الحكم التركى العتيق ؟ بيد أن ملكية الأرض والملكية الصناعية وملكية الرأسمالية فى تركيا لم تجد شيئاً فى خلق نوع من الدولة الاشتراكية وحتى لم تخف حدة أشد النظم الأوتوقراطية فى هذه الدولات . ذلك لأن الاشتراكية الحقة ولأن الضرورى فى الاشتراكية ليس تأميم Nationalisation الأراضى والأموال فحسب بل تأميم الدولة ذاتها أيضاً . غير أن ذلك يتطلب

مكتبتنا العربية

عبقرية نبي بحيث تكون مرنة وقوية كعبقرية محمد عليه الصلاة والسلام حتى يتسنى لها أن تطبق المثل العليا تطبيقا عمليا . وهناك كثير من المصلحين الذين يظلون يعظون الناس طول حياتهم إلا أنهم يعجزون عن إغراء فرد واحد فى العمل وفقا لما يقولون . ولقد سمعنا فى جيلنا هذا عظات وخطبا ألقاها ملوك وأشخاص باركوا السلام وتغنوا باستمراره ومع ذلك لازلنا نرى الدم الإنسانى يراق كأنه الماء على أيدى محبي السلام ودعاته . وقد دأبت الأمم على أن تغلق أعينها عن مسارح المذابح التى يقوم على قربانها الضعفاء من الأطفال والنساء ، ثم تظن أنها أنقذت شرفها بما أبدته من عدم اكتراث يدل على الجبن ، ويرى فريق من هذه الأمم أفراداً عاجزين قد سلبوا فى رابعة النهار بأيدى قراصنة أشداء قساة ، ومع ذلك يدير هذا الفريق من الناس وجوههم معللين أنفسهم بأنه لم يكن لهم يد فى هذا الاثم .

وأوربا اليوم مليئة بالأمم التى إما ترتكب بنفسها الجريمة أو تشارك غيرها فيها . ومثل هذه الأمم التى لا تحترم حقوق الآخرين ولا تحترم التزاماتها ووعودها لا يمكن أن ينتظر منها العمل على تقديم المثل العليا النبيلة كإقرار السلام العالمى أو دعم الاشتراكية التى تنشر المساواة فى العالم ، وأنا على يقين من أن حديث الاشتراكية الذى يردده أهل أوربا ليس إلا أسطورة لا جدوى من ورائها كأسطورة السلام . فالميول المادية التى تموج فى العصر الحاضر تروّج فى أذهانهم الأهواء التى تعد مناقضة لفكرة الاشتراكية على نحو ما تناقض السلام ، وأوربا التى تسعى إلى الترف وتميل إلى عدم الاعتراف بالألوهية لن يكون فى وسعها نشر السلام والاشتراكية ، إذ أن كلا منهما يتطلب أساساً وقوة روحية ، وهما مما تفتقر إليه أوربا ، وما معظم الصحائف الذهبية لتاريخ هذا العالم إلا أسفار للنصر الأدبى الذى ظفرت به آسيا ، أما أوربا فقد اخترعت أدوات حديثة عبقرية غايتها هلاك الإنسان ، فى حين أن آسيا أنجبت تلك الأرواح الخالدة التى أنقذت الجنس الانسانى بأسره . وقد كان الغزو الأوربى لآسيا قائما على أسنة الرماح ، أما سلطان آسيا على أوربا فقد تم بفضل تلك العقول الكبيرة التى أحدثت ثورة فى الأخلاق Ethice ورفعت مستوى المثل الإنسانية حتى بلغت مرتبة الكمال

(يتبع)

مكتبتنا العربية

العظمة والخلود

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

حب العظمة نزوع إنسانى قديم ، جبل عليه ابن آدم منذ أحس بحاجته إلى نضال العيش ، ومجال الكسب ، وعراك المادة ، والميل إلى الغلب ، والرغبة فى السيطرة ، والطموح للتملك والاقتناء . . . وقد صحب هذا كله إعجاب المعجبين بالتفوق ، وتصفيقهم للسابق ، وإكبارهم للمبرز ، وتعظيمهم للمتقدم . . . وما زال هذا المعنى يتدرج مع الزمن ، وينمو على الأيام ، حتى ازداد الإقبال عليه ، والطمع فيه ، وود الناس أن يكون تطلع الأنظار إليهم دائماً ، وحديث الأفواه عنهم غير منقطع . وهنالك فكروا فى أن تقترن العظمة بالخلود ، فرغبوا فى امتداد حبل الحياة ، وتراخى أجل الموت الذى يدركونه من غير شك ، ويشاهدونه متكرراً متجدداً . . . وقد نشأت عن ذلك خرافات كثيرة ، وترهات متنوعة ، لا يتسع المجال لسردها ، ولا لطول الحديث عنها ، إلا أن عقيدة البعث التى جاء بها الإسلام كانت قضاء على ذلك كله ، وتهذيباً للخيال المحلق فيها ، وإرضاء للنهم فى البقاء وصار المسلم يطمئن الاطمئنان الصحيح إلى الموت ، لأنه يعلم أنه حياة من طراز آخر ، وخلود على مثال لم تألفه البشرية ، وأكثر القرآن الكريم من حديث البعث والثواب والعقاب ، والمجازاة على الأعمال ، وتركز الإيمان فى النفوس على أساس أنه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وجاء فى وصف الآخرة ما يفيد أنها دار البقاء والقرار . وأن الدنيا دار الفناء والفرار ، وأكثر الشعراء من جريان ذلك على ألسنتهم ، ودورانه فى ثنايا قصائدهم . . إلا أن العقول قد تضاربت فى حقيقة العظمة ، واختلفت فى بيان معناها ، ويظهر أن تنوع البيئة والزمان والمكان ، كان من عوامل تباين وجهات النظر فى ذلك . . حتى كان فى اللصوصية عظمة ، وفى الكبرياء عظمة . وفى العدوان على الضعفاء ، واغتيال الأبرياء ، والتطاول على الشرفاء عظمة ، كأن الألباب صدئت ، والحجا ضل

وميزان الأشياء أصابه خلل ، لأن الرذيلة لا تكون فضيلة ، والنور لا يكون ظلمة ، إلا حين تنتكس القلوب ، وتلتوى الأفئدة . وتتحول الأحوال . . . وحين أطل فجر الإسلام على المسلمين وكانت رؤوسهم لا تزال - على جاهليتها - متأثرة ببعض دواعى « العظمة الكاذبة » مما كانوا يزعمونه من أسبابها ، ويظنونه يجعلهم من أربابها جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم آخذاً بتلابيب آخر يشكوه إليه . لأنه يكاثره بماله ، ويفاخره بنسبه ، ويتطاول عليه بماضيه فى الكفر . وسوابقه فى الجاهلية ، وقد ظن أنه حين يرفع أمره للرسول الكريم ، سيقضى له ، وينصره عليه ، ولم يدر بخلده أن الدين الذى سوى بين الناس فى التقدير ، ووفق بينهم فى الاعتبار ، لم يجعل لعربى فضلا على عجمى إلا بالتقوى ، ولم يجعل خيارهم فى الجاهلية خياراً فى الإسلام إذا لم يضموا إلى أحسابهم الأولى ، وميزاتهم السالفة « الفقه فى الدين » . وهو بالطبع لا يقصد أن يكون الإنسان عالماً وكفى . . ولكنه يقصد أن يكون العلم سبيلا إلى العمل . ووسيلة إلى التنافس فى الخير ، والتسابق إلى المجد . وفهم الذين اعتنقوا شريعته صلى الله عليه وسلم أن العظمة فى الطاعة . والفخر فى الامتثال « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » . وكلما أحسوا من أنفسهم أنهم يلتزمون الجادة ، ويسيرون على صراط ربهم المستقيم ، ازدادوا زهواً وخيلاء ، وتناسوا ما فى الدنيا من زخرف ، وما فى أهلها من مظاهر . وما يحيط بها من فتنة وقالوا ما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . لا هم إن العيش عيش الآخرة » .

وفكرة خلود الخلق فى الدنيا بما قدموه من أعمال ، وما قاموا به من جهود ، وما بذلوه من معروف ، وما ادخروه عنده سبحانه من طاعة . . فكرة لم ينكرها الدين ، لأن يوم القيامة وإن كان ظرفا للجزاء . ومجالا للثواب . . إلا أن تردد اسم الموت ، وخطوره بالبال ، وجريانه على اللسان ، الى جانب كونه نوعا من الجزاء العاجل ، يغرى بالخير ، ويدفع الى العمل الصالح ، ويحبب فى صرف الجوارح لله الذى خلق السموات والأرض .

وكما تكون العظمة فى العمل للآخرة تكون كذلك فى العمل للدنيا ، غير أن عمل الدنيا العظمة فيه زائلة ، والحديث عنه ينتهى بنهايتها . ويزول بزوالها ، ولذلك يرشدنا جل جلاله ، الى العمل الذى ينفع ، والذخر الذى يدوم ، والشرف الذى

مكتبتنا العربية

يبقى ، إذ يقول « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » . وربما مر بالخاطر أن ثواب الأعمال على قدر ما يحصل منها من فائدة فى الدنيا . أما أعمال الآخرة فأمور تعود على العامل وحده ، وأجدر بها ألا تكون من العظمة فى شىء . والصحيح أن العمل الصالح فى ذاته يعظم به الأجر ، ويزيد به القدر ، ويكثر به الذخر ، وأفضل الأعمال فى باب الطاعة ، ما كان أكثر عائدة على الناس ، لأن الأصل فى التكاليف أن يتهذب بها المكلف ليكون الى الملائكة أقرب ، وإلى الخير أشد ميلا .

وبعض الجاهلين يروق له الخلود مطلقا بصرف النظر عن نوعه من الخير أو الشر . ولا يعنيه من العظمة ، إلا أن يكون حديثا معادا . وذكرى منقولة ، متناسيا أن خلود الشر شر الخلود ، وترداد الذكر بالسوء من أخبث أنواع السوء . فاللهم وفقهم لفهم الأشياء ، وارشدهم الى الصراط السوى ، وبصرهم بالحقائق ، وجنبهم مزالق الشيطان ، واهدهم فإنهم لا يعلمون ؟

من الشعر حكمة

قدم العلاء بن الحضرمى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تروى من الشعر شيئاً ؟

قال : نعم !

قال : فأنشدنى ، فأنشده :

تحبب ذوى الأضغان تسب نفوسهم ... تحببك القربى فقد ترقع النعل

وإن حسدوا بالكفر فاعف تكرماً ... وإن غيبوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

مكتبتنا العربية

مجالات مع النفس :

انى صائم . . !

بقلم الأستاذ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

هذا هو المضطرب الصاخب ، وذاك هو التكالب المريح ، والتطاحن الدائب ، فانزل إليه وساهم فيه ، وألق دلوك فى الدلاء ، وخذ فى العلائق ، وتعلق بالأسباب : أسباب التشادق الذى خدع الناس ؛ واصطنعه بعضهم ، وعاش منه وعليه وله . . .

هكذا همست وتلمظت النفس . . . غير أنى وقفت وهى تراودنى وتطارحنى الهمهمة ، وكادت قناتى تلين حين أشارت إلى أناس يعدهم الناس من الأخيار ، ويحسبهم الغبى من الأتقياء .

وكادت قناتى مرة أخرى تهن . . .

ثم عدت إلى النفس أتسمع حسيسها ولا أجيب . وتغلى أهواؤها ولا تفور وجعلت أتصنع الوعى عنها والفهم . . . وجعلت تزوزنى أزاً وتهزنى هزاً ، وأخيرا قلت لها بعد أن قالت لى :

أيتها النفس : أجملى شغفاً ، وهونى عليك . أيتها النفس : « إنى صائم »

— نعم . . . أنت صائم . . .

أعرف هذا من حرمانى . . تمسك عن الطعام والشراب ؟

وضحكت من نفسى وأتخنتها باللوم ، وأرهقتها من سخرياتى ، ودميت جوانبها ، كأنما أحارب عدوا يشهر سلاحه فى وجهى .

— أيتها النفس ، صومك عن الطعام والشراب بعض ما فى الصوم من تكليف

أيتها النفس : لا حاجة لله فى هذا اللون من الحرمان ، أن جريت فى ميدان تحب فيه غيرك ووضع .

أيتها النفس : لا تذكرى الأهواء وأنت صائمة ، ولا تجرى وراء الخدع وأنت صائمة ، ولا تخوضى فى حديث اللاهين وأنت صائمة ، ولا تمدى عيناً وأنت صائمة ، ولا تجهرى أو تخافتى بضغينة وأنت صائمة ... ولا ولا . .

وهنا شدهت النفس قائلة : قدْكَ قدْكَ :

ــ كنت أحسب الصوم ؟. . .

ولم أدعها تهجس بما عندها من باق وما فى قرارتها من قول . . . بل رحت فى نشوة المنتصر أغرقها فى خضم من معانى الروح وصفاء القلب ، وأسوق إليها طرائف وطرف من طيب بالغ فى العظة والتذكير حتى إذا اطمأنت وأخذها صحو الاعتبار كسرت من شوكتها وألقت إلى السمع .

ــ أيتها النفس : نهارى نهار الناس وليلى ليلهم ، ولكن وراء الليل والنهار صوم تمرن عليه فى شهر لتذكره فى كل شهر ولتعمل به آناء الليل وأطراف النهار .

ذاك هو الصبر على المكاره والترفع والإبقاء على نعمة العقل وحسن الرضى وصحة الرأى ، وتوثيق العقيدة ، والتعلق بحب الله ورسوله ، وإفساح الصدر ، حتى يطرد منه ضيق الجاهلية ، ودعوة الحمق ، وغرور المدعين ، وصخب المبطلين .

ــ أيتها النفس أنى صائم .. وأنت ..؟

ــ إنى صائمة . .

ــ تصومين أيتها النفس ؟

ــ نعم أصوم النهار وأقوم الليل !

ــ يا عجبا . . !

ــ ولم العجب . . ؟

ــ أعرف النفس أمارة بالمطامع ، همازة مشاءة إلى كل ما يردى . .

ــ تعرفنى ولكن ؟

ــ ولكن ماذا . . ؟

ــ إنه الصوم ، وإنها فطرة طيبة ، إذا فُتّحت أبوابُها غُلقت منافذ الشيطان وقطعت دابر الفتنة ، واطمأنت الروح من غاشيات قاسية قاصمة .

وصامت النفس أبد الحياة ، وحرّمت على صاحبها مسالك الطغيان والجور وفى زحمة الانتصار على النفس ، تنفست وتلفت فإذا الحياة جميلة ، واذا طيوب الصوم تلفنى ، ولا أجد فى حرمانه غير طلاوة الهدوء ، وسكينة الاطمئنان ، وراحة الأمل ، وبشرى السلامة من عقاب الله ، وفى ظل اللياذ بعفوه ورجاء مثوبته ، والطمع فى رحمته التى وسعت كل شيء .

أيتها النفس : « أنى صائم » .

أيها القلب : وأنت طول الدهر صائم . فإلى مائدة الروح . إليها . إليها . .

وأما حاجات النفس ، فإلى أطواء الحرمان ، حتى نلقى الله الذى يتولى السرائر ، ويضع الموازين فى ملتقى لا ينفع فيه إلا سلامة القلب ، وصوم الدهر عن زيوف زُخرفتها أنامل الخدع ، ورقشتها ريشة لوّان فى طلائها ، فتانُ الأبالسة ، ومُفتن الشياطين .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أيتها النفس . . هل تلاقينا . . ؟

أكبر الظن بل عين اليقين أنى وإياك لمختلفان . .

أيتها النفس هذا حداء الصائم فى بيداء الحياة ، ولعلك تذكرين غنوة الصحراوى الذى صحب ناقته إلى هدف يحبه ، وسمع حنين الناقة إلى ما خلفته ، فراح يشكو وهى تشكو . . . وراح يحن وهى تحن ، وكل يغنى على ليلاه . .

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى وإنى وإياها لمختلفان

أيتها النفس هنيئا لى ولك صوم شهر ومران دهر . . .

هنيئا مريئا غير هاجسات مخامرة أيتها النفس « إنى صائم » ؟

مكتبتنا العربية

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

أمّا بعد ، وأمّا بعد ، وبعد .

تورد (أما بعد) فى معرض الانتقال من موضوع إلى موضوع . قال الزّجاج [١] : « إذا كان الرجل فى حديث فأراد أن يأتى بغيره قال : أما بعد . ويذكرها علماء [٢] البديع فى الكلام على الاقتضاب ، وهو الانتقال من حديث إلى حديث لا يلائمه . والاقتضاب مذهب الجاهليين ومن يليهم : لا يتأنقون فى الحديث ، ولا يتكلفون مراعاة التناسب فيه . ويذكر البديعيون : أن الاقتضاب فى (أما بعد) يدنو من مقام التخلص ، فى أنه يشوبه شىء من المناسبة .

واشتهر إيرادها فى الخطب بعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على صاحب الرسالة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وكذا فى صدور المصنفات والرسائل . قال ابن حجر : « ولا [٣] تختصّ (أما بعد) بالخطب ، بل تقال أيضاً فى صدور الرسائل والمصنفات » .

وقد وردت (أما بعد) فى خطب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورسائله. وعقد البخارى فى أبواب الجمعة من صحيحه باباً أورد فيه ستة أحاديث فيها أما بعد . وفى فتح البارى : أن هذا اللفظ ورد فى أحاديث أخر ، وأن الحافظ عبد القادر الرهاوىّ تتبع طرق الأحاديث التى وقع فيها (أما بعد) . ومن هذه الأحاديث ما روى عن المسور بن مخرمة : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب خطبة قال : أما بعد . قال ابن حجر : « وظاهره المواظبة على ذلك ، وقال ابن [٤]

---

(١) أنظر فتح البارى ، فى أبواب الجمعة
(٣) فتح البارى فى أبواب الجمعة
(٢) أنظر التلخيص وشروحه فى آخر البديع
(٤) أنظر طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٨

مكتبتنا العربية

السبكى فى الطبقات : « ولو ذهبت أسند ما وقع من الأحاديث والآثار فى (أما بعد) لطال الفصل وخرج إلى الملال ، ودخل به السامع فى الكلال » .

وقد أخذ العلماء من هـذا استحباب (أما بعد) فى الخطب والرسائل . قال الزين بن المنير : « ينبغى للخطباء أن يستعملوها تأسياً واتباعا » . وقال النووى فى شرح مسلم فى أبواب الجمعة فى الكتابة على حديث فيه هـذا اللفظ : « فيه استحباب (أما بعد) فى خطب الوعظ والجمعة والعيد وغيرها ، وكذا فى خطب الكتب المصنفة . وقد عقد البخارى بابا فى استحبابه . وذكر فيه جملة من الأحاديث » .

وإذا كان القارىء لا يخالجه شك بعد هـذا الحديث فى رفع (أما بعد) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد يدور بخلده هذا السؤال : هل قيلت قبله ، وهل يحيط العلم بأول من قالها ؟

ولا يكاد الباحث يرى من يسند أوليتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأن مما لا ريب فيه أنها قيلت قبله ، ولم أقف على نص وردت فيه قبل العهد الإسلامى .

وللعلماء جولات واسعة فى أول من قالها ، حتى ليسندها بعضهم [1] إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ففى بعض الحديث : لما جاء ملك الموت إلى يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال يعقوب فى جملة كلامه : أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء . وظاهر أن هذه الحكاية إن صحت ، حكاية لما قاله يعقوب وترجمة لمعناه بالأسلوب العربى ، ولا يلزم أن يكون فى لغته ما يقابل (أما بعد) . وقد قيل إن (أما بعد) هو فصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه الصلاة والسلام . وإنه أول من نطق بها . قال ذلك بعض المفسرين أو كثير منهم . قال النووى : « وقال المحققون : فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل . وابن الأثير فى المثل السائر لا يرى ما يراه النووى . فهو يقول : [2] ، والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه ـ يريد فصل الخطاب ـ أما بعد : لأن المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر

---

(١) العينى فى شرح البخارى فى أبواب الجمعة .

(٢) أنظر النوع الثالث والعشرين .

مكتبتنا العربية

ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله : (أما بعد) ، وقد يكون ابن الأثير لا يعنى فصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه الصلاة والسلام .

ويرى بعضهم أن أول من قالها يعرب بن قحطان ، وبعضهم أنه قُسّ ابن ساعدة . وبعضهم أنه سحبان وائل ويوردون له :

لقد علم الحىّ اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وسحبان هذا من وائل القبيلة القيسيّة ، وقد أورده ابن حجر فى الإصابة ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق غير مذكور اسم أبيه . ونسبه صاحب بلوغ الأرب فقال : هو سحبان بن زُفر بن إياس الوائلى وائل باهلة . وأيا ما كان الأمر فلم أر أحداً جعل أباه وائلا ، وإنما يضاف إلى وائل . فيقال سحبان وائل لا سحبان بن وائل ، ومن ذلك البيتان المشهوران :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العىّ لما أن تكلّم باقل

وقد أردت بهذا أن يتنبه لخطأ توارد عليه الكتّاب فى (أما بعد) ، فهم يقولون : سحبان بن وائل . ترى هذا فى طبقات الشافعيّة وفتح البارى وشرح العينى للبخارى وغيرها . وفى الإصابة أن المعروف من أمر سحبان أنه جاهلى ، ونقل عن ابن عساكر أنه عمّر حتى وفد على معاوية رضى الله عنه ، فإذا صح هذا وصح أنه قال البيت السابق قبل الإسلام برَد فى يدنا نصٌّ بها قبل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن فى عزو هذا البيت إلى سحبان بعض الشىء ، فإن سحبان مضرّى ؛ إذ ينتسب إلى قيس عيلان بن مُضر ، فما باله يفخر بالخطبة فى الحىّ اليمانين . والخطيب إنما يفخر فى العادة بالخطبة فى نادى قومه .

ووردت صيغة أخرى حيث تورد (أما بعد) هى : « وأما بعد » بزيادة الواو . ومن هذا قول [1] الشاعر :

---

(١) أنظر البيان للجاحظ ١٠٥/٢ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية

وإن جئت الأمير فقل : سلام عليك ، ورحمة الله الرحيم

وأما بعد ذاك فلى غريم من الأعراب ، قبّح من غريم !

وقول صاحب المفتاح : « وأما بعد فإن خلاصة الأصلين » .

واشتهرت بعد صيغة أخرى أضحت هى المتداولة فى الخطب والرسائل والقصص ، وهى (وبعد) . وقد صارت هذه الصيغة أجرى على الألسنة وألوط بالأفئدة .

وقد جرى فى شأن هذه الصيغة الأخيرة حديث بين الباحثين ، وأنكرها بعض الفضلاء .

وفى الحق أن هذه الصيغة لم ترد فى المأثور من الكلام القديم . وأقدم ما وقفت عليه فى ذلك قول (١) الجاحظ : « وبعد فهل قتل ذؤاب الأسدى عتيبة بن الحارث ابن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبعوهم فلحقوهم » . ومما ينبغى أن يتنبه عليه فى هذا الموطن أن الجاحظ أتى بهذه الصيغة فى معرض الفذلكة للكلام السابق وإجمال ما أسلف من تفصيل . فقد كان يتحدث قبل عن قتال العرب بالليل ، ويرد فرية من زعم أن العرب لا تعرف هذا الضرب من القتال ، ثم أورد هذا الحديث . وكذلك ورد هذا اللفظ أيضاً فى كلام ابن جنى . ففى (٢) الخصائص : « وبعد فقد صحّ ووضح أن الشريعة إنما جاءت من عند الله تعالى » وفيها أيضا (٣) : « وبعد فإذا عرف التوكيد لم وقع فى الكلام ، نحو نفسه وعينه وأجمع وكله وكلهم وكليهما وما أشبه ذلك عرفت سعة المجاز فى هذا الكلام » ويقول (٤) أيضا فيها : « وبعد فهذا مذهب الشعراء : أن يظهروا فى هذا ونحوه شكّا وتخالجا ليروا قوة الشبه واستحكام الشبهة » والقارىء لكلام ابن جنى يرى أنه استعملها أيضا فى الفذلكة

---

(١) البيان ٣/ ٩

(٢) ١٥١/١ وهو الجزء المطبوع

(٣) الجزء الثانى (لم يطبع بعد) فى « باب المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة »

(٤) الجزء الثانى « باب إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول »

مكتبتنا العربية

كما استعملها الجاحظ . وقد يرى الباحث أن هـذا ليس ببعيد من الغرض الأصلى للصيغة الأصلية (أما بعد) وهو الانتقال من موضوع إلى آخر ، فى الفذلكة الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ، وبينهما بعض التغاير والاختـلاف ، فكأن المنتقل من أحدهما إلى الآخر منتقل من موضوع إلى موضوع ومن حديث إلى حديث .

ويبدو أن العلماء كانوا يرون فى هـــذه الصيغة الحادثة أنها صورة للأصل : « أما بعد » . وهم لهذا كانوا لا ينكرونها . ويقول ابن حجر فى الكلام على (أما بعد) « وقد كثر استعمال المصنفين لهـا بلفظ (وبعـد) » بل يرى بعضهم أن لهـا حكم (أما بعد) فى الاستحباب : إذ كانت فرعا عنها ، ويثبت للفرع حكم الأصل . وقد ألف الشيخ أحمد بن موسى العدوى المالكى [1] رسالة لطيفة سماها : « عائدة الورد » فيما يتعلق بالكلام على (وبعد) » رتبها على سبع مقالات ، وجعل المقالة الخامسة فى حكم الإتيان بها ، ويقول فى هذا المبحث : « فيندب الإتيان بها ؛ قياسا على أصلها الذى كان يأتى به عليه الصلاة والسلام فى خطبه وكتبه وهو (أما بعد) : كما هو الثابت فى صحيح الخبر عن الأئمة والأثر ؛ لأن ما ثبت للأصل ثبت لفرعه » . وقد يناقش هذا القياس : فالاستحباب إنما عماده التأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لا يتحقق إلا باتباعه فى اللفظ الذى جاء به الرسول عليـه الصلاة والسلام بعينه ونصه ، فإذا جىء بلفظ آخر كان حرىً ألا يكون هذا اتباعا ، وإن كان بسبب مما جاء به ، وليس هناك ما يدعو إلى تجنب اللفظ الذى أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الرغبة فى الاستخفاف .

والناظر فى الصيغة من جهة العربية يرى بعدها الفاء حيث لا موجب لهـا .

وهنا تشعبت آراء العلماء ، فيرى فريق أن هذا المقام لما ألف فيه (أما بعد) أضحت (أما) فيه عالقة بالنفس وإن سقطت فى الـكلام . فـ (أما) وإن لم توجد حساً فهى موجودة وهما ، وعلى ذلك جاءت الفاء ، والوهم يترتب عليه آثار لسانية كثيرة ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

---

(١) هذه الرسالة فى مجموعة فى دار الكتب الأزهرية . انظرها فى فهرس النحو .

مكتبتنا العربية

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

حيث جر (سابق) على توهم الباء فى (مدرك) . ومن ذلك جمعهم مسيلا من السيل - على مسلان ، توهموا مسيلا فعيلا ككثيب ورغيف ، فجمعوه على فعلان ، وإنما مسيل مفعِل . وقالوا : تمسكن وتمندل وتمدرع على توهم إصالة الميم ، وهى - لا محالة - زائدة ، ما كان لها أن تثبت فى بناء الفعل . على أن هذا الرأى قد لقى نقداً وإنكاراً ، ويقول ابن عابدين[1] : « وأما توهم أمّا فلم يعتبره أحد من النحويين » وكأن ذلك لأن التوهم المذهب فيه السماع ، ولا يتوسع فيه ، ويقتصر به على ما ورد عن العرب .

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير أمّا فى الكلام . ويشترط الرضى لتقدير أما فى الكلام بعد الواو أن يكون ما بعد الفاء أمراً أو نهياً ، وما قبلها منصوباً به أو بمفسر به ، كما فى قوله تعالى : وربك فكبر . ويتكلف بعضهم تخريج ما هنا على مذهب الرضى فيقدر فى الكلام محذوفاً .

ويرى بعضهم أن الواو نائبة عن أما ، ومن ثم جاءت الفاء . وبها ألغز بعضهم فقال :

وما واو لها شرط يليه جواب قرنه بالفاء حتما ؟

فأجابه[2] بعضهم بقوله :

هى الواو التى قرنت ببعد وأما أصلها ، والأصل مهما

وأيا ما كان الأمر فقد يخرج القارىء من هذا البحث بصحة « وبعد » عربية وأنه ليس من الخطأ استعمالها . والمصنفين سلف فى الجاحظ وابن جنى ، وهما من هما فى التحرى للعربية والعلم بها .

---

(١) الرسائل ١/٦٩ .

(٢) أنظر حاشية السجاعى على القطر فى الخطبة .

مكتبتنا العربية

من نوادر المخطوطات

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

لفضيلة الاستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير مكتبة الأزهر

من مفاخر علماء المسلمين السابقين إبان نهضتهم الفكرية أمانتهم العلمية التى يدهش لها المنصفون من علماء العصر ويقدرونها قدرها بين الفضائل العلمية ، وقد كانت هذه الأمانة تغلب فى نفوسهم كل عاطفة مهما اشتدت ، إذ كان الأب يتهم فى سبيلها ابنه إذا رأى منه ما لا يتفق وتلك الأمانة ، وقد جاء عن بعض علماء الحديث أنه كان يقول عن ابنه : « لا تثقوا بروايته » ، ومما يعد من مفاخرهم أيضاً وفاؤهم لشيوخهم وإجلالهم واعترافهم بالفضل عليهم . ومن مأثور الحكم : من علمنى حرفا صرت له عبداً .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد دفعت تلك الأمانة العلمية بعض العلماء - وبخاصة علماء الحديث - أنه يسجل أسماء شيوخه وما رواه عنهم فى أسفار خاصة تعرف بمعاجم الشيوخ ، يحدوهم إلى ذلك عاملان ، عامل الاعتراف بالفضل لشيوخهم ، وعامل الثقة فيما يروونه ، وكأنهم بذلك يقدمون البينات على دعاواهم العلمية .

وفى تاريخ العلوم الإسلامية شىء من هذه المعاجم أو الفهارس ، ومن أحسن ما عثرنا عليه فى ذلك : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس للعلامة ابن حجر ، وهو مجلد ضخم دوّن فيه أسماء شيوخه الذين روى عنهم الحديث . وموضوعات هذه المرويات أو أجزاؤها ويقع فى ١٦٠ ورقة عدا ورقتين ملحقتين بآخره ، وعدا بعض طيارات فى وسطه (ورقات صغيرة ملحقة ببعض ورقاته) وقد ذكر أسماء شيوخه مرتبة على حروف المعجم وقسمهم على طبقات أشار إليها فى خطبته كما يأتى :

وهو بخط ابن حجر نفسه والمسودة الأولى له ، لذلك تكثر فيه الكتابة على الهامش تكملة أو تصحيحاً أو تهذيباً لما فى الصلب وهو عسر القراءة لعدم جودة

مكتبتنا العربية

الخط وندرة النقط والإعجام فى أكثر كلماته كمنهاج عصره فى الخط ، وقد ابتدأ فى وضعه سنة ٨٠٦ هـ وفرغ منه سنة ٨٢٩ هـ .

وابن حجر هذا من أشهر علماء الحديث رواية ودراية فى عصره ، وله طائفة كبيرة من الكتب فى علوم الحديث ، وله الشرح المشهور على صحيح البخارى . «فتح البارى» وقد أجمعت التراجم على غزارة علمه وجلال قدره ، كما أجمعت على صلاحه وتقواه قال العلامة السخاوى فى ترجمته فى التبر المسبوك : « هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل المصرى الشافعى ، حافظ العصر . علامة الدهر ، شيخ مشايخ الإسلام ، حامل لواء سنة خير الأنام ، قاضى القضاة ، أدقُّ الحفاظ والرواة ، باشر القضاء بالديار المصرية استقلالا مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر تخللها ولاية جماعة . والتدريس بعدة أماكن فى التفسير والحديث والفقه والوعظ وخطب بجامعى عمرو والأزهر وغيرهما ، وأملى ما يذيف على ألف مجلس من حفظه ، وزادت تصانيفه على مائة وخمسين ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وارتحل له الأئمة وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء فى كل مذهب وبكل قطر من تلامذته ، وانتشرت جملة من تصانيفه فى حياته وتهادتها الملوك والأكابر ، كل ذلك مع تواضعه وحلمه وظرفه وصيامه وقيامه وورعه ومزيد أدبه مع المتقدمين والمتأخرين ومحبته أهل الفضل والتنويه بذكرهم وعدم اطراء نفسه وركونه إلى هضمها وبذله وكرمه وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة وسعة العلم فى فنون شتى وشهد له شيخه العراقى بأنه أعلم أصحاب الحديث .

ولد فى شعبان سنة ٧٧٣ هـ بمصر وتوفى سنة ٨٥٢ هـ بمصر أيضاً ودفن بالقرافة الصغرى فى مشهد لم ير مثله .

ومن خطبة المجمع المؤسس بعد الديباجة : أما بعد : فأنه كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامى شيوخهم وتدوين أخبار كبارهم وتغايرت مقاصدهم فى السير فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم لأتذكر عهدهم ، وأجدد لهم الرحمة بعدهم فجمعت أسامى شيوخى على المعجم مرتبا وقسمتهم على قسمين مهذبا فالأول من حملت عنه على طريق الرواية ، والثانى من قرأت عنه شيئاً على طريق الدراية

مكتبتنا العربية

وأضفت إلى الثانى من أخذت عنه شيئاً فى الذاكرة من الأقران ونحوهم وقد قسمتهم من حيث العلو إلى خمس مراتب الأولى من حدثنا عن مثل التقى سليمان وأبى الحسن الموالى وأبى الغوث الدبوسى وعيسى المطعم والقاسم بن عساكر وأبى العباس ابن الشحنة ونحوهم وعلامتنا « ط » إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى . الثانية من حدثنا عن أصحاب ابن عبد الدايم والنجيب وابن علان ونحوهم وعلامتهم « طس » اشارة إلى أنهم من الطبقة الوسطى . الرابعة من حدثنا عن أصحاب الفخر بن البخارى وابن القواس والأبرقوهى ونحوهم ممن كان يمكننا الأخذ عنهم . الخامسة من أشرت اليه ممن أخذت عنه فى المذاكرة أو شيئاً ما لغرض أو نوعا من العلم أو انشاء أو فائدة ومن ليس عندى عنه إلا الإجازة أو الشىء اليسير باسماع من أهل الطبقة الخامسة من غير استيعاب لهم .. .. .. وترك العلامة لهم علامة أخ .

وبآخر الكتاب :

.. آخر المجمع المؤسس للمعجم المفهرس علقه أحمد بن على بن حجر الشافعى عفى الله عنه واتفق الفراغ منه فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك وكان الابتداء فى كتابة مسودته سنة ست وثمانمائة . ثم جمعت الفهرست منه وزدت فيه أسانيد كتب كثيرة بالإجازة لتكمل الفائدة وكان فى شعبان سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة ولله الحمد على ما من وأفضل .

تكلف

لى صديق يرى حقوقى عليه ... نافلات ، وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا إليه ... ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير ... واشتهى أن يزيد فى العرض عرضا

وقال صالح بن عبد القدوس فى صديق السوء :

تجنب صديق السوء واصرم حباله ... وإن لم تجد عنه محيصا ، فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله ... يجده وراء البحر ، أو فى قراره
ولله فى عرض السموات جنة ... ولكنها محفوفة بالمكاره

مكتبتنا العربية

رمضان بين الماضى والحاضر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

شهد ماضى رمضان نهاراً عامراً بالإيمان والإحسان ، وليلا زاخراً بالذكر والقرآن .

ويشهد حاضره نهاراً مفتونا بشهوة البطون ، وليلا صاخبا بالخلاعة والمجون

شهد ماضيه عُبّاداً فى الأسحار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لربهم فى المحاريب خاشعين متضرعين يبكون من خشية الله ، ويرجون أن يتقبل الله ، حتى إذا صلوا الفجر راحوا يشهدون رزق ربهم ويجاهدون فى سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة .

ويشهد حاضره فى مصر الإسلامية ألوانا متنافرة : عبّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد ، بل تشهد أسماره سكارى عجت بهم مجالس السمر العابث بين الغيد والكاس ، لا يصيخون لمؤذن الصباح بل لمؤذن الصبوح ، ولا يرعشهم قرآن بل ترقصهم الألحان ، حتى إذا امتدت فى الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذوا المخادع ، واطمأنوا فى المضاجع حتى الأصيل ، ليستقبلوا ليلة أخرى حمراء وهكذا ينقضى شهر العبادات والطيبات وهم فى لهو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق .

لم يشهد ماضيه فى الضحى مطاعم ولا مقاهى مفتحة الأبواب ، يختلف اليها أولئك الذين فقدو الحياء وقد راحوا يلتهمون الطعام ويستعذبون الشراب .

أما حاضره فيشهد فى كل شبر صوراً مختلفة الأشكال من المخازى فى مصر الإسلامية ، فالمطاعم والمقاهى فى ضحى رمضان غاصة بالطاعمين الشاربين الذين لايستحون من الله ولا من الناس .

الممتازة ، اما المتوسطون وغـــير المتعلمين فـلا بد من أن نقرن الفضيلة لهم
مكتبتنا العربية

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحي يشهد فيها رمضان أفواجا من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون .

والمنازل يشهد فيهـا رمضان أوانس وسيدات خفن أن يضعضع الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهن فأفطرن صونا للجمال أن يذبل .

ويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادى الله ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .

شهد ماضيه فى الأصائل قصور الأغنياء ودور العظماء يهرع اليهـا المحتاجون والأرامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شعت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان ، وامتدت إليهم الأيدى بالطعام فأنستهم مرارة الجوع وانطلقت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء .

ويشهد حاضره فى الأصائل قصور الأغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن ، ولا دعوة بائس ، ولا تمتد يد محجبة من وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم ، أو تحقق أمنية حالم ، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعاءه ، وتسيل جفاف لعابه ، ليعود إلى بنيه الجياع ، أو زوجته المنطوية على نفسها ، بالدمع بين جفنيه ، والحسرة والحرمان بين جنبيه .

لم يشهد رمضان فى المـاضى المرأة المسلمة إلا راعية فى بيتها تقوم على شئونها وترعى حقوق زوجها وبنيها ، وتضحى براحتها فى سبيل هناءة أسرتها

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلمة وقـد تنكرت لبيتها ، وأنكرت زوجها وأبناءها ، وافتتنت بزينتها عن غيرها ، وجرها شيطان الهوى إلى التنكر لكل ماله صلة بالدين والأخلاق ، وليتها نسيت أنوثتها وعواطفها ، وخافت وعيد ربها ، وذكرت قول محمد صلوات الله عليه : « نظرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء » فمـا ينجيها يومئذ من عذاب الله جمـال ولا مال ولا جاه .

لقد شهد رمضان فى المـاضى نفوسا هذبها الإسلام وربطت بينها أخـلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فهى قلوب

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

العين ، يوجد معنى أعمق ، وأن لذة اللذات إنما توجد فى رؤى النفس المبرورة فى حضرة الحق حين يرفع الحجاب بين الرب والعبد ، وتتجلى الذات على العقل بعد أن يتخلص من شوائب الجسد وأدران الدنيا . وهم فى هذا يتمثلون بكلمات القرآن والحديث ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه ـ إن أحب الناس إلى الله هو من يرى وجهه تعالى صباح مساء ، فيشعر بسعادة تفوق كل مسرات البدن ، كما تفوق مياه المحيط نقطة العرق . وحدث أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن ربه : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال اقرأوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »[1] . وثمت حديث آخر صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أن الإرادة الطيبة تتمتع بقرب الله ، وهى التى عناها القرآن بقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[2] .

أما التعبيرات الصريحة فى القرآن ، فإن هذه الجماعة من المفكرين تفسرها على ضوء الآية الكريمة من الكتاب الحكيم : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات [واضحات للفهم] ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات »[3] .

وتوجد فرقة تنظر إلى مسرات الآخرة وعذابها نظرة موضوعية إطلاقا ، فهى ترى أنه لما كان الألم العقلى [المعنوى] الشديد أكثر عذابا من الألم الجسدى ، فكذلك يكون السرور العقلى [المعنوى] ذا طبيعة أعلى ودرجة أسمى من أى لذة جدية . ومن هنا « ترجع » [إذا استعملنا اللفظ القرآنى] الروح الفردية بعد الموت البدنى إلى الروح الكلية ، فإن جميع المسرات والآلام التى صورها النبى [الموحى اليه] فى صور حية مثيرة ، ليتمكن العوام من فهم حقيقتها ، لن تكون إلا عقلية وموضوعية . وتتضمن هذه الفرقة بعض كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين .

وفرقة أخرى ، وربما كانت الأكثر عدداً ، تعتقد فى حرفية الألفاظ القرآنية .

---

(١) السجدة ٣٢ / ٧١ .

(٢) سورة يونس ، ١٠ / ٢٥ ـ ٢٦ (٣) سورة آل عمران ٣/٧ .

مكتبتنا العربية

تدرج القرآن بالإنسان من المعانى الحسية إلى المعانى الروحية ، مسايراً قدرة معتنقى الدين الجدد على التخلص من حياتهم المادية ، وبالتالى قدرتهم على فهم الحياة الروحية . إن سعادة الأبرار إنما تكون فى السلام الدائم والإرادة الخيرة فى حضرة الحق : « إن المتقين فى جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين . ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين [1] » .

إنما أردنا ههنا أن ندلل على فساد النظرية التى تقول بأن صور القرآن عن الحياة الأخرى كانت كلها حسية ، وحسبنا دليلا هذه الآية من القرآن الكريم ، لنرى عمق الروحية فى الإسلام ، ونتاء الآمال وطهر الاتجاهات التى تنبنى عليها قوانين الحياة .

« يا أيتها النفس المطمئنة . إرجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى [2] » .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الموصلى

كان محمد بن دانيال بن يوسف الطبيب صاحب نثر رقيق وشعر طريف وكان يعتمد على النكات فى شعره فيجىء مروحا للنفوس . من شعره :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقة الأيدى

فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ... فاذا رقدت رقدت غير ممدد

لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتدى

ملق على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبدد

والفأر يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد

---

(١) سورة الحجر ١٥/٤٥ - ٤٨ (٢) سورة الفجر ٨٩/١٧ - ٣٠ .

موقف الاسلام من الفقراء

لفضيلة الاستاذ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

دعا الإسلام الى المبادىء الإنسانية القويمة التى تهدف الى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسمى المبادىء الخلقية التى تتمثل فيما تفيض به نفوسهم ، من محبة خالصة ، وود صادق ، وتعاون حق ، وأخوة أكيدة ، حتى غدا المجتمع الإسلامى الأول ، مجتمعا مثاليا ليس فيه ثائر آلمه الجوع . وأمضه الحرمان ، أو مظلوم أحزنه الإغضاء . وكاد يودى به النسيان ، أو ظالم أمن فى سربه ، وقد أدمت سياطه الظهور ، وغلت أوزاره الأعناق ، أو غنى طغى ، وبغى لأنه وجد من يمالئه طمعا فى ماله ، وركونا الى جاهه . ورهبة من سلطانه وذلك لأن الدستور الاسلامى سوى بينهم ، وكفل لهم حقوقهم فى حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ورسم لأفراد مجتمعه . السبيل الواضح الى الحياة الكريمة ، حياة العاملين المناضلين ، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة ، وندد بمن يستمرئون الكسل ، ويستطيبون المسألة ، ويستسيغون الاستجداء . ورعاية لهذه الأغراض النبيلة ، لم يفرض للفقراء حقوقا على القادرين وأرباب الثروات ، إلا بعد أن دعاهم الى الجد والمثابرة على السعى ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الإجتماعية « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وقد دعا الرسول فى قوة وحزم ، الى الدأب على العمل فى صدق وإخلاص ، فعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته يقول « من يصبر ، يصبره الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، قلت فما أنا بسائلك اليوم » وفيما رواه الزبير ابن العوام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيذهب

مكتبتنا العربية

فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها . فكف بها وجهه . خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة » .

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التى رسمها الدين ، وأخلصوا فى تنفيذها ، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال . والقناعة عملا بتوجيه الرسول وامتثالا لإرشاده . وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم ، يدينون بها ، ويؤمنون بالإخلاص لها ، ولذلك غدا كل منهم خارجا عن سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، يدل على صدق ما نقول صنيع عبادة بن الصامت حينما أهديت له هدية ، وإن فى الدار إثنى عشر رجلا من أهل بيته . فقال عبادة اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج بها منا . فقال الوليد بن عبادة . فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهو أحوج منا إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وحينما يعجز الفقراء عن السعى والجد لكسب قوتهم ، لم يتركهم دستور الدساتير هملا يتضورون جوعا ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، بل وضع لهم نظاما قويما دعمه بأقوى الأسس وأثبتها ، إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقا تفى بحاجاتهم ومطالب وجودهم ، وتفسح لهم فى مجتمعهم مكانا لايحسون فيه فوارق تتشكى لها النفس . ويتبرم بها الحس .

ولقد عنى بهذه الحقوق أكمل عناية . وفى غير نص من نصوصه . ولم يفرق بين المسلم وغيره تمديسا للتسامح الذى ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور . ورصد للوفاء بشئون الفقراء ، يستوى منهم من عجز عن العمل ، ومن عدت عليهم عوادى الأيام ، وحلت بهم صروف الزمن ، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنسانى الذى يليق بهم . رصد لهم بابا موفور الدخل ، هو باب المساعدات الاجتماعية . ولما طبعت نفوس السلف على الخير ، وحب البذل ، والسبق إلى السخاء ، استوى عندهم أن تمتد أيديهم بما أوجبه الدين ، وجعله لزاما عليهم . يطالبون بأدائه . وما يفعلونه تطوعا يبتغون به إلى الله التقرب والزلفى . مدفوعين إليه بضمير يقظ وحس مرهف .

مكتبتنا العربية

وقد حذروا بمسارعتهم للبذل أن يحيق بهم ما حاق بثعلبة بن حاطب ، وقد وعد أن يتصدق ، ثم نكص على عقبه بعد أن غلبه الشح ، وتمكن منه الضن ، فخاس بعهد قطعه على نفسه أمام رسول الله قال فيه : « فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله سبحانه مالا لأعطين كل ذى حق حقه » . ولما ثاب إلى رشده ، بكى ندما وحثا التراب على رأسه . وفيه يقول تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . ولنكونن من الصالحين . من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه . وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

وكان قمينا بالمسلمين أن يستجيبوا فى صدق إلى هذا النداء الإلهى الحكيم . إذ أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملهم ، محمد بن عبد الله ، عملا يسبق القول ، ودعوة إلى البر ، تتفو جودا كالريح المرسلة ، يصدر عن قلب رحيم ، أحب الفقراء ونهض بهم . وحباهم بفضل من عطفه . ولفت الأنظار إلى احترامهم . ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه ، وأدناهم منه ، وبالغ فى صلتهم . وسوى بينهم . وبين من اعتقد أنه عريق الأصل . طيب الأرومة .

روى أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها . ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته ، وإطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الاحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم ما فعلوا بها ، فأجابته عائشة أنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ، ووضعها فى كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ، ثم تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وكذلك كان المسلمون يقتدون بالرسول فى حياته وبعد مماته . يدل لذلك ما روى أنه كان فى المدينة فى زمن النبى شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصارى ، ولم يكن فى المدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبى ، والنبى يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم . فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

مكتبتنا العربية

فغشى على الشاب ، فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة . فقال له النبي نعم يامالك ، قال والذى بعثك بالحق ليمسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهما . فتصدق بما له ، وفعل عمر يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ، إذ رأى شيخا ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى ، قال له ما ألجأك إلى ما أرى قال : اسأل الجزية ، والحاجة ، والسن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها . وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ، ثم نخذله عند الهرم .

هذا هو موقف الاسلام من الفقراء ، السواد الغالب فى الأمم والشعوب ، لم يتركهم نهباً لذوى الأغراض وأرباب الشهوات . بل حفظ لهم حقوقهم الانسانية كاملة .

أما الآن — وقد تبدل الحال غير الحال ، وغدت الأنانية والأثرة شرعة الأقوياء ، وسمة ذوى السلطان — فقد استشرى الفساد ، وشاعت أسباب الفرقة والاختلاف ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من تباعد بين الطبقات ، أفقد الأغنياء ثقة الفقراء لأنهم تخلوا عما يوجبه دينهم من التعاون والتراحم ، وعاشوا فى أبراج عاجية ، يحيون حياة أبطال الأقاصيص ، من ترف وبذخ ، ومجون وسرف ، ينثرون الذهب على موائد الميسر ، وفى ميادين السباق وأماكن اللهو .

أما مواسم البر ، ودواعى الخير ، فليس لهم إليها من سبيل مما جعل الفقراء ينقمون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويترقبون الفرصة المواتية لأن ينتزعوا منهم حقهم فى الحياة ، ويتطلعون إلى المبادىء الهدامة ، علهم يحصلون فى حماها على حقهم المغتصب ، ونصيبهم المسلوب ، وكرامتهم المهدرة ، وإنسانيتهم الممتهنة ، بعد أن أيأستهم الوعود الخلابة ، والأساليب المعسولة ، وعبارات الكذب والملق .

ولا علاج لهذه الحالة ، إلا إذا أحس الأغنياء ، وأرباب الثراء ، أن فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ، وان عيونا تنبعث منها نظرات متقدة ، كأنها شواظ من نار ، ترنو إلى ما فى أيديهم من أموال ذاخرة ، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب فى عناية بالغة مصادرها ، كيف جمعت وإلى أين ذهبت ، وقد تيقظ الوعى القومى ، فأصبحت الشعوب لا ترضى بغير التناسب والتناسق بين الطبقات ، والتعاطف والتعاون ، ليجد الجائع الطعام ، والعارى الكساء ، والمريض الدواء ، والجاهل العرفان ، وإذ ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام ؟

مكتبتنا العربية

مذهب الصرفة

لابن حزم

لفضيلة الاستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى

مبعوث الأزهر فى السودان

أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى الأندلسى ، أصله من فارس جده النامن أول من أسلم من أسرته ، وكان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، ولذلك كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ، ويتشيع لهم .

عاش ابن حزم بين سنتى ٣٨٤ ، ٤٥٦ هـ ، ونشأ فى قرطبة ، فى بيت رياسة ، وقد لابس جزءاً من هـذه الرياسة حقبة من دهره ، ثم انصرف فى وقت مبكر إلى الدراسة والتحصيل ، ودفعته همة عالية ، وذكاء متقد إلى التعمق فى كثير من العلوم ، فكان ثانى اثنين - فى الدولة الإسلامية - بلغا الذروة فى التأليف ، ثانيهما ابن جرير الطبرى .

ووجد ابن حزم عداء شديداً من أهل الأندلس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ، أحدها ما عبر عنه بقوله :

هنالك تدرى أن للعبد غصة وأن فساد العلم آفته القرب

فزامر الحى لا يطرب ، والفاضل - فى كل مكان - مبغض إلى أهل بلده ، وابن حزم يقول :

تقر لى العراق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل دارى

وثانيها : أن ابن حزم كان معتداً بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد . فدفعه ذلك إلى مأزقين خطرين ، فقد كان ينال من الأئمة المتقدمين ، لم يسلم من لسانه أحد ، ويصور ذلك قول ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج توأمين ، كما كان يقول ما يجىء على لسانه دون رفق أو التواء ، لا يعرف التعريض ولا التلطف فى الخطاب ، بل يصك معارضه صك الجندل - كما يقول ياقوت -

مكتبتنا العربية

كل ذلك إلى تشيعه لبنى أمية ، وانحرافه عمن عداهم ، بغض فيه رؤساءه ، وكثر أعداءه ، وأساء إلى سمعته .

ولابن حزم تآليف كثيرة ـ كما أسلفنا ـ ولعل أهمها كتابه (الفصل فى الملل والنحل) وهو كتاب لا ينكر فضله إلا جاحد أو مكابر ، وفيه تكلم عن إعجاز القرآن ، وعليه معتمدنا فى هذا البحث .

آراؤه فى القرآن :

القرآن المعجز هو المكتوب المتلو ، وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه ، وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير ـ وحده ـ معجزاً ـ كما روى عن بعضهم ، وبرهان ذلك قول الله تعالى ، فأتوا بسورة من مثله ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ، ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب ، وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله .

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة فى كل الآيات ، فهو يرى أن من أبهر الآيات وأعظمها قول النبى لليهود الذين كانوا معه فى وقته ولعلهم كانوا الوفا أن يتمنوا الموت ان كانوا صادقين فى تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلا فعجزوا عن تمنى الموت ، وحيل بينهم وبين النطق بذلك . وهذه قصة منصوصة فى سورة الجمعه ، وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا ، وهم يسمعونه يقول (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) .

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى ، وعارض القرآن معارضة صحيحة ، ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط . قال ابن حزم وقد تعاطى بعضهم ذلك يوما فى كلام جرى بينى وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فان الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، ووالله لئن تعرضت لهذا الباب باشارة ليسلبنك الله هذه النعمة ، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لى : صدقت والله ، واظهر الندم .

رده على مذهب البيانيين :

يقول أكثر أهل العربية ـ ومنهم الجاحظ ـ بالإعجاز البيانى فى القرآن ،

مكتبتنا العربية

ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة ، ويعتبر القول بالصرفة رأى طوائف ، وقد عنى أولا بالرد على القائلين بأن القرآن فى أعلى درج البلاغة فقال : وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة ، وهذا خطأ شديد ، ولو كان كذلك - وقد أبى الله عز وجل أن يكون - لما كان حينئذ معجزة ، لأن هذه صفة كل باسق فى طبقته ، والشيء الذى هو كذلك ، وان كان سبق فى وقت ما فلا يؤمن أن يأتى فى غد ما يقاربه بل ما يفوقه .

وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنه فى أعلى درجة البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وشعر امرىء القيس ، ومعاذ الله من هذا ، لأن كل ما يسبق فى طبقته لم يؤمن أن يأتى من يماثله ضرورة . فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى منع من معارضته فقط .

الاعتراض على الصرفة والإجابة عنه :

يسوق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرفة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة أبلغ ، ثم يرد قائلا : فهذا هو الكلام الغث حقاً لوجوه :

(أحدها) أنه قول بلا برهان : لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون فى كل ما كان فى أعلى طبقة ، وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود .

(ثانيها) أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجزت بهذا النظم دون غيره ، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسداً ؟ وكل هذا حمق ممن جاء به لم يوجبه قط عقل ، وحسب الآية ان تكون خارجة عن المعهود فقط .

(ثالثها) أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا هلا كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات ، فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم ؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب فقط .

مكتبتنا العربية

القرآن وكلام البشر :

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان ذلك :

١ — أن إنساناً لو أدخل فى رسالة له أو خطبة ، أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، كما أن الأقسام التى فى أوائل السور لا عهد بها ، وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة .

٢ — نجد فى القرآن إدخال معنى بين معنيين ، ليس بينهما كقوله تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ، وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ، ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » . وليس هذا من بلاغة الناس فى ورد ولا صدر ، ومثل هذا فى القرآن كثير .

٣ — ما روى عن أنيس أخى أبى ذر الغفارى رضى الله عنهما حين سمع القرآن فقال : لقد وضعت هذا الكلام على ألسنة البلغاء وألسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك ، أو كلاما هذا معناه .

ويتعرض ابن حزم — هنا — لأمور تتصل بالاعجاز ويطيل فيها ، وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه ، فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ، ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ، ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه فى أعلى درج البلاغة ، فالأشعرية يقولون : إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو إنا أعطيناك الكوثر فصاعدا ، فيرد ابن حزم بقول الله تعالى : على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا يختلف اثنان فى أن كل شىء من القرآن قرآن ، فكل شىء من القرآن معجز ، وهذا هو الحق الذى عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوهها ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ، ولأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ، ولا يقال حينئذ إنها معجزة ، فلما صارت

مكتبتنا العربية

مِنْ أَدَبِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

قدمت أسماء بنت زيد الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله « إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات محذورات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوا علينا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا لهم أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه . قالوا بلى يا رسول الله ـ فقال انصرفى يا أسماء واعلمى بأنك من النساء ، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال » .

من كلام الله أصبحت معجزة ، وأن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت نها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجىء بمثلها أبداً ، وأنها متى ذكرت فى خبر على أنها ليست قرآناً فهى غير معجزة .

حرصت فى هذا البحث على أن ألخص آراء بن حزم بكل دقة ، ولم أتعرض للرد عليها ، بل تركت ذلك إلى أوانه حين أفصل ردود السلف على القائلين بهذا المذهب ، على أنى أطلت النظر فى كلام ابن حزم لأرى هل تعرض لشبهة قديمة يذكرها العلماء فى الرد على مذهب الصرفة ، وهى أنه لو كان الأمر كذلك لكان تعجب العرب ـ حين عجزوا ـ من عجزهم لا من بلاغة القرآن ، فلم أهتد إلى شىء فى كتابه يصرح أو يلمح إلى هذه الشبهة .

وكما نلاحظ أن ابن حزم وإن جعل القرآن نوعا على حدة ، وليس من نوع كلام المخلوقين ـ إلا أنه يفهم من ضربه المثل بالماشى فى الطريق ـ أن القرآن كان مقدوراً للعرب ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يجيئوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين المعارضة ، وبهذا ـ عنده ـ يكون الاعجاز .

مكتبتنا العربية

هذه القصة ترينا الصورة الحقيقية التى يهدف إليها الإسلام فى تربية المرأة وتقويم خلقها ، وتهذيب نفسها ، ومدى صلاحيتها لبناء مجدها ، وتربية أمة قوية فى أخلاقها وفى تكوينها والاشراف على أولادها ، لتخرج للمجتمع رجالا صالحين لأن يبنوا مملكة ، ويعلوا شأن أمتهم .

جيلا سداه الخلق ، ولحمته النظام ، واحترام حقوق الغير . والعمل لخير المجموع .

هذا هو الدستور الصحيح الذى إن تمسكت به المرأة وسارت على هديه وانتظمت فى سلكه . وعملت بقواعده . رقت وسمت . ونالت المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة وحق لأمتها أن تفخر بين الأمم بما تقدم هذه الأم لأبنائها من مثل عليا ، وما تبعثه فى نفوس أبنائها من عزة وكرامة ، وسمو واعتزاز . فالمرأة التى تهز المهد بيمينها هى الحقيقة بأن تحرك العروش بشمالها .

أما تلك التى تنسى واجباتها . وتهمل مملكتها . وتخرج إلى الطرقات لتبعث فى الناس الفتنة . وتثير فيهم مكامن الشهوة بما تبديه من زينة وما تظهره من خلاعة ومجون ، فهى حرية بكل احتقار ، خليقة بكل ما يصيبها من ثلم شرفها والاعتداء على كرامتها . ووصفها بأبذأ أنواع النعوت . لا يقام لها شأن ، ولا يلتفت إليها إلا كما يلتفت الحيوان إلى أليفه حينما تلح عليه الشهوة أو تثيره عوامل الاغراء ، لا يقام لرأيها وزن ، ولا يعبأ بمشورتها .

وقديما قسم العلماء والفلاسفة المرأة إلى ثلاث صنوف :

فالصنف الأول منهن هى التى تعيش فى حدود أنوثتها الكاملة . ومقوماتها السامية ، وردة ناضجة تشم . لا شوكة تؤذى وتجرح ، وقلبا ينبض بالحيوية لا عقلا يتفلسف ، وشعرا يوحى ويلهم .

والصنف الثانى ـ هى التى تلتزم حدود الأنوثة فى سماحتها وعفتها ورقتها لها قوة العابدات لا عقل المربيات تعيش للرجل أمة تخضع ومتاعا يستغل .

والصنف الثالث ـ هى التى تعيش الآن فى عصرنا الحاضر تتمرد على أنوثتها وتخرج عن حدود طبعها ، وتثور على حقها ، وتطالب بما للرجال من حقوق قبل إدراكها لمطالب المجتمع قبلها ، تتعلم لتجادل وتطلب التحرر لتتحلل من قيود

مكتبتنا العربية

الفضيلة وتسعى فى الأرض لتبث الفتنة أينما حلت وحيثما ارتحلت وما درت أن الثعالب تترقبها وأن الذئاب تنتظرها وأنها تذبح الفضيلة فى ثورتها .

فعليها إذا أرادت أن تكون المرأة الكاملة فى المدينة الفاضلة أن ترحم أمتها وتعنى بأسرتها وتثوب إلى رشدها وتأخذ لها العبرة من الماضى والحاضر لتبنى المستقبل على أسس الدين الصحيحة وأخلاقه الرشيدة ففيها كل السعادة لها وللأجيال المقبلة ، وكفاها هذا الدستور السليم الذى أرسله رب العالمين إلى خير الهادين والمرشدين فى قوله « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذا هو النظام الكونى الصحيح الذى وصفه الله تعالى للمجتمع للسير على هديه وينتظم تحت لوائه وهو المجتمع المثالى الذى ارتضاه رب العزة والجلال لمخلوقاته .

أما تلك النظم المائعة التى نضعها نحن لأنفسنا والتى لا تختلف فى شىء عن نظم الغاب فهو عبث صبيانى لا يبنى لأمة مجداً ولا يرفع لها شأنا ، ولا يعلى لها قدراً بل على العكس من ذلك يهدم بنيانها ويقوض دعائمها وفى النهاية تتردى فى هوة سحيقة وتعود إلى همجيتها الأولى .

فالى القادة والزعماء أهيب بهم ألا يحاملوا أحداً على حساب دينهم وليقولوا بصوت الحق والعدل والانصاف للمرأة قولة الطهر والبراءة « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

عند ذلك تستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويعرف كل واجبه فيؤديه على خير الوجوه ويعود للأمة الإسلامية مجدها وعزها ومكانتها وسؤددها وتجتث عوامل الشر والفساد ونقضى على هذه الفوضى التى نئن منها جميعا ويرضى عنا الله والناس أجمعين .

والله ولى الهداية والتوفيق ؟

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدروس الدينية

فى قصر رأس التين

ألقى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر حديثين دينيين من أحاديث شهر رمضان المعظم بعد صلاة العشاء، الأول يوم الجمعة ٤ رمضان، والثانى يوم الجمعة ١٨ رمضان، فى قصر رأس التين العامر.

وقد استمع الى حديثى فضيلته كبار رجال القصر الملكى العامر وكثيرون من العلماء الفضلاء وأهل الرأى.

وقد ختم فضيلته الحديث الأول بهذا الدعاء:

« نسألك اللهم وأنت العلى القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروقا الأول أعزه الله. وأن تكتب له السلامة لخير الدين والأمة والوطن.

« اللهم أنك تعلم أنه قد بذل من جاهه وقوة نفسه وعزمه ولم يدخر فى ذلك وسعا فى سبيل مجد مصر ورفعة شأنها وفى سبيل مجد العروبة والإسلام.

« اللهم أنك تعلم أنه انفق الكثير من ماله فى سبيل الخير العام وواسى الفقراء واحسن الى الضعفاء وذوى الحاجات بماله وقوله وفعله وعمل لمصلحتهم ولخيرهم ورفاهتهم وكل ذلك فى سبيلك وابتغاء مرضاتك.

« اللهم امنحه الرضا واملأ قلبه حكمة ورحمة ونورا من نورك الأسنى واجعل فيه ومنه الخير لعز الإسلام ومجد الإسلام إنك على كل شىء قدير.

« كما نسألك اللهم ان توفق حكومة جلالته إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها وفلاحها وأن تمدها فى هذا السبيل بعونك وقوتك وأن تمنحها فى أعمالها الرشد والسداد والسلام عليكم ورحمة الله ».

وتنشر فيما يلى نص هذين الحديثين:

مكتبتنا العربية

الدرس الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم . ولاهم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم (٢٦٣) يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين (٢٦٤) » .

فى الآيات السابقة ذكر الله مثلين فى حياة الأمم وموتها : مثل الأمة التى فقدت حياتها كأمة ، لتهاونها فى شئونها ، وخور عزيمة أبنائها أمام عدوها مع كثرتهم . ومثل الأمة التى كادت تستكين لعدوها وتخضع لسلطانه ، وتفقد حياتها كأمة ، لولا ما كان من فريق من أبنائها ذوى القوة والجلد والصبر ، قادوها فى معترك الحياة إلى الدفاع عن كيانها ، والاستهانة بالشدائد فى سبيل حياتها ، حتى غلبوا عدوهم وظفروا بأمنهم وسلامتهم ، وكتب الله لهم الملك والحياة .

وفى معرض ذكر هذين المثلين أمر الله المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وذكرهم بما كان من أمر هاتين الأمتين ليعتبروا ، ودعاهم إلى بذل المال فى هذا السبيل ، وسمى ما دعاهم إليه قرضا حسنا لله ، مع أنه غنى عن العالمين ، فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . وأتى بهذا الأسلوب الرائع القوى ليهز قلوب المؤمنين هزاً ، ويملأ نفوسهم روعة وجلالا ويملك عليهم شعورهم ووجدانهم ، حتى أنه ليسهل على المؤمن عند سماعه هذا أن ينزل عن كل ماله حبا فى الله وابتغاء مرضاته . فكيف وقد وعده بالجزاء عليه أضعافا كثيرة ، ووعده الحق .

مكتبتنا العربية

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح : يا رسول الله : أوَ أن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : يدك قبلُ . فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربى حائطى : حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه فى عيالها ، فناداها : ياأم الدحداح . قالت : لبيك . قال : اخرجى قد أقرضت ربى حائطا فيه ستمائة نخلة . وقال زيد ابن أسلم : إن هذا الحائط كان أحسن الأرضين اللتين يملكهما أبو الدحداح .

هذا ما جاء فى الآيات السابقة . وبعد أن حذر الله المؤمنين من التوانى فى الإنفاق فى سبيل الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ » ذكر هنا تفصيل ما سبق إجماله ، وبين فى الآيات ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فيما ينفقه فى سبيل الله حتى يحظى برضاء الله ، وينالَ عليه جزاءه فى الدنيا والآخرة . فقال « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبة » أى أن ما ينفقه هؤلاء فى سبيل الخير العام للمؤمنين لإعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأمة الإسلامية ينميه الله تعالى ويضاعفه حتى يكونَ خيره كأبرك حب فى أخصب أرض نما حتى جاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، وأنهم بعملهم هذا سيجزون الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة ، بما يكون لهم من الذكر الحسن بين مواطنيهم ، وما يكون لهم بين أفراد الأمة من التمتع بحمايتها ورعايتها ، بما لها من المكانة ورفعة الشأن بين الأمم ، وما ينالون من الثواب العظيم الذى يضاعفه الله تعالى لهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد . « والله يضاعف لمن يشاء » فيزيد من الأجر إلى ما لا يقدر . « والله واسع عليم » لا ينحصر فضله ، ولا يحد عطاؤه ، وهو أعلم بمن يستحق المزيد من فضله من أهل الإخلاص وعمل الخير الدائم .

وإنما قلنا إن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل الخير العام للمؤمنين ، لأن سبيل الله هو دينه وطريقه الذى يوصل إلى الخير العام . وقد جهز عثمان بن عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بألف بعير وألف دينار . وتصدق عبد الرحمن ابن عوف بنصف ماله أربعة آلاف دينار . ونزل الكتاب بأن ما أنفقتاه هو فى سبيل الله يضاعف الله عليه الأجر . وأنفق أبو بكر ماله فى مصالح المؤمنين لإعلاء

مكتبتنا العربية

كلمة الله ، وكان ما أنفق فى سبيل الله . وهكذا كان ذوو اليسار من المؤمنين ينفقون أموالهم فى خير الأمة وهم يعلمون أنهم إنما يفعلون ذلك فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وعلى هذا فالإنفاق على نشر العلم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجىء ، وتسهيل سبل العيش على الفقراء ، وإعداد الجيوش ، وكل ما فيه خير للمسلمين ، هو إنفاق فى سبيل الله ، يضاعف الله عليه الأجر ، ويجزى عليه خير الجزاء .

والحكومات وإن كانت تقوم بهذا ولكن موازينها عادة لا تكفى ، فيكون من حق الله على الموسرين أن يتموا هذا النقص ، ليسعدوا وتسعد أمتهم ، ويكون لهم من الله الجزاء العظيم .

لما عظم الله أمر الإنفاق فى سبيل الله ، وكانت هناك أمور تعرض للنفوس فتكدر صنائع المعروف ، نبه الله المؤمنين إلى أنه ينبغى أن تكون نفقاتهم فى سبيل الخير بعيدة عن هذه المكدرات ، خالصة لوجه الله تعالى ، حتى يكون لهم عند الله عظيم الأجر ونعم العطاء ، فقال تعالى « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والمن : هو ذكر ما ينغّص المعروف ، بأن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه . والأذى : هو أن يتطاول المحسن على من أحسن إليه بسبب هذا الإحسان .

والمعنى أن الذين يبذلون أموالهم فى سبيل الخير العام لأمتهم ، أو لذوى الحاجة من أبنائها ولا يلحقون بهذا العمل ما يكدره من المن على من أحسنوا إليهم بإظهار تفضلهم عليهم ، أو بإيذائهم بالتطاول عليهم بسبب ما بذلوه لهم من الإحسان - سيكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتقرعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق فى سبيل الله .

وقول الله تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من النهى عن المن والأذى .

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يردبه السائل من غير عطاء ، وإغضاء عما يحصل منه من الإلحاف فى المسألة ، أو ستر لحاله بعدم التشهير به - خير له

مكتبتنا العربية

من صدقة يتبعها سوء القول أو سوء المقابلة ، أو غيرهما من كل ما فيه إساءة أو إيذاء له . « والله غنى حليم » أى غنى عن هـذه الصدقات التى تجلب الأذى للفقراء ، لأنه طيب لا يقبل إلا الطيبات . وحليم لا يعجل العقوبة على من يمن ويؤذى بصدقته .

وهذه الآية تقرر مبدأ عاما فى الشريعة ، وهو أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأن الخير لا يكون طريقا إلى الشر . وفيها إعلام من الله تعالى لنا بأنه يجب أن نطهر أعمالنا فى الخير من الشوائب التى تنغص على الفقراء ، بل من حقهم علينا أن نترفق بهم ، وأن الصدقة عليهم إذا لم تكن إلا مع المن والأذى فلنتركها ، ولا أقل من أن نجبر قلوبهم بكلمة المعروف .

وقال الأستاذ الإمام : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فمن لم يكن له مال ، يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل ، وينشط العامل ، ويبعث عزيمة الباذل ، وهذا خير من الذى يساعد الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانه ، وبيان التقصير فيه ، أو تشكيك الناس فى فائدته . فإن كونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من أن ترضخ ببعض المال مع قول السوء وفعل الأذى .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى صدقاتهم على الفقراء أو فى سبيل المصلحة العامة للمؤمنين ، وهو أن تصدر خالية من المن والأذى ، أقبل عليهم ونهاهم عن ذلك نهياً صريحاً فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » أى أن من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى فإن صدقته تقع على وجه لا ثواب فيه ، فيحبطها الله ويجعلها كأنها لم تكن .

أو المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى لأن المن والأذى يهدم الغرض المقصود من الصدقة ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، أو تخفيف حاجات الأمة ودفع الضرر عنها إذا كانت

مكتبتنا العربية

الصدقة قد أنفقت فى مصلحة عامة . ولا مراء فى أن كل عمل لا يؤدى إلى الفائدة المقصودة منه يكون كأنه لم يكن . وهنا قد أتبعت الصدقة بما يحبطها ويمنع من الغرض المقصود منها ، بل هو ضدها ونقيضها .

وقد شبه الله أصحاب المن والأذى فى الآية بالمرائى وهو الذى ينفق ماله حباً فى الظهور أمام الناس بمظهر فعل الخير ليمدحوه ويرضوا عنه ، وقلبه منصرف عن الله ، ومتعلق بالناس الذين يرائيهم ، فقال « كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والإنسان وإن كان مفطوراً على حب المدح وكراهة الذم ، وحب الجاه والسلطان ، ولكن الجاه والمدح والثناء لا يكون محموداً عند الله تعالى إلا إذا كان من طريق الكمال النفسى ، والإخلاص لله فى العمل ، لا من طريق مراءاة الناس مع عدم الشعور بعظمة الله وسلطانه . فالذى ينفق ماله ليكسب حب الناس ومودتهم وتعلقهم به ، وليكون له بينهم جاه وسلطان ، ليتوسل بذلك إلى التمكن من قلوبهم ، والسيطرة على نفوسهم ، ليصلح الفاسد ، ويقوم المعوج ، ويهديهم إلى طريق الخير - هو لا شك من القادة الأخيار ، الذين يستحقون أعظم الحمد والثناء فى الدنيا ، وأحسن الجزاء عند الله فى الآخرة .

وأصحاب المن والأذى هم كالمرائى فى أحط صفاته ، وهو أنه مراء لا يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر ؛ فعمله مجرد من صفات الخير ، لا إيمان بالله ، ولا إيمان باليوم الآخر ، ولا هو يعمل العمل لذات الخير ، كالعمل الذى يعمله غير المؤمنين لذات الخير غير مرائين فيه ، وإنما هو يعمل للهوى النفسى ، وشهوة المدح والجاه . وما مثله إلا كمثل الصفوان ، وهو الحجر الأملس ، إذا كان عليه تراب ، يظنه الرائى صالحاً للإنبات ، ولكن لا يلبث هذا التراب حتى ينزل عليه وابل ، أى مطر غزير ، يمحوه فيعود ذلك الحجر أملس لا يصلح لتقبل البذور ، ولا الإنبات . فهو كما قال الله تعالى « فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا » .

مكتبتنا العربية

والمانون المؤذون والمراءون هم سواء فى أنهم كالحجر الأملس عليه تراب هو عملهم الذى يرى كأنه نافع فينزل عليه الماء ، وهو مثل المن والأذى والمراءاة فيمحو هذا التراب ويغسله غسلا « لايقدرون على شيء مما كسبوا » . أى لاينتفعون بشيء مما عملوا يوم القيامة ، لأنه لا ثواب إلا مع الإخلاص ، ولا إخلاص مع المن والأذى والرياء ، بل هم فى الدنيا يكونون موضع سخط الناس وغضبهم عندما ينكشف حالهم ، وتظهر سوءاتهم . « والله لا يهدى القوم الكافرين » الذين خلت قلوبهم من نور الهداية ، فجحدوا نعمة الله عليهم ، ولم يقابلوها بالشكران بأن ينفقوا مما أنعم عليهم ، كما أراد الله ، من غير من ولا أذى ، ولا مراءاة ، ليكونوا فى عداد العاملين المخلصين .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مكتبتنا العربية

الدرس الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ، فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بين الله فى الآيات السابقة ما دعا اليه المؤمنين من الإنفاق فى سبيل الله ، وأنهم إذا أنفقوا فى سبيل الله فإن الله تعالى يضاعف لهم الأجر أضعافا مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، ونهاهم عن أن يُتبعوا صدقاتهم بالمن على من أنفقوا عليهم ، أو إيذائهم ، بأن يسيئوا اليهم بأى نوع من أنواع الإساءة : وبين لهم أن المن والأذى يبطل الصدقة ، كما تبطلها المراءاة ، وأنهم هم والمرائى سواء ، فى أنهم كالحجر الأملس الذى عليه تراب ، يظنه الناس أنه تراب فيه نفع وصالح للإنبات ، ولكن هذا التراب لا يلبث حتى ينزل عليه مطر غزير ، فيذهب به ويغسل الحجر فيعود أملسَ ، لا يصلح لتقبل البذر والإنبات : وأن هذا التراب هو مثل ما يقومون به من الصدقات ، وذلك المطر هو مثل المن والأذى والرياء ؛ يذهب بما عملوا ، ويجعله كأن لم يكن .

ثم أعقب الله هذا المثل بمثل المنفقين المخلصين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، للمقابلة ، وظهور الفرق بين هؤلاء وأولئك ، فقال : « ومثل الذين

مكتبتنا العربية

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة . . . ، إلى آخر الآية .

والمعنى أن أهل البر والإحسان ، الذين ينفقون أموالهم طلبا لمرضاة الله ، وهم متثبتون من أنفسهم أن عملهم خالص لله ، هؤلاء مثلهم كمثل جنة فى أرض مستوية ، جيدة التربة ، عظيمة الخصب ، إن أصابها مطر غزير آتت ثمرتها مثلى ما كان يعهد منها ، وإن أصابها طل ، وهو الندى أو المطر الخفيف ، فإنه يكفيها فى أن تثمر وتأتى بالخير ، لحسن موقعها ، وجودة تربتها ، وقوة إنباتها .

والوجه فى هذا التمثيل أن هؤلاء المنفقين الصادقين هم كالجنة النامية ، الجيدة الخصب ، فكما أنها إن أصابها الوابل ضاعفت الثمرة ، وإن خف المطر آتت أكلها على كل حال ، كذلك هؤلاء المخلصون فى صدقاتهم ، إن وسّع الله عليهم أغدقوا الخير ووسّعوا ، وإن أصابهم خير قليل أنفقوا بما يتسع إليه حالهم ؛ وهم فى صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم لا ينضب معينهم ، ولا يخيب قاصدهم ، كهذه الجنة أكلها دائم ، ولا يخشى عليها التلف .

وقد ختم الله الآية بقوله ، والله بما تعملون بصير ، ليذكرنا بأنه يعلم كل أمورنا لا يخفى عليه شىء من أعمالنا ، وسيجازى كل عامل بما عمل . وفى هذا تحذير أيضاً لأهل الرياء الذين يغشّون الناس بظواهرهم ، وتحذير لأهل المن والأذى بأن الله بصير بعملهم الذى لا خير فيه .

وقوله تعالى ، أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ... إلى آخر الآية ، مثل آخر ضربه الله للمرائين وأهل المن والأذى . والاستفهام فى الآية للإنكار ، والإعصار هو الريح العاصفة التى تستدير فوق الأرض ثم تنعكس إلى السماء حاملة غباراً ، فتكون كهيئة العمود ، وهى المسماة بالزوبعة . والمراد بالنار : السموم الشديد الحر الذى يحرق النبات والشجر .

والمعنى : أيود الإنسان أن تكون له هذه الجنة ، وهى جنة فى غاية الحسن شجرها الكرم والنخل ، اللذان هما أجل الشجر وأنفعه ، وفيها أنهار تجرى

مكتبتنا العربية

من تحتها تزيدها حسناً ، وله فيها من كل الثمرات ، وقد لحقته الشيخوخة وطعن فى السن ، وذريته صغار لا يقدرون على العمل ، ثم لم يلبث حتى أصابها إعصار فيه سموم محرقة أتت عليها فأحرقتها ، فصار فى محنة ملأت نفسه غماً وهماً وحسرة بما ضاع من الثمرة التى لم يكن له ولذريته معاش سواها ، وأصبح فى أشد الحاجة إلى النفقة .

والاستفهام الإنكارى فى الآية يعطى معنى النفى ، أى لا يوجد عاقل يود أن يكون صاحب هذه الجنة ، ويصيبه ما أصاب صاحبها من التجرد من منافعها ، فى وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها .

والمقصود من هذا المثل بيان حال المرائين وأصحاب المن والأذى ، الذين قرنوا صدقاتهم بما يبطلها ويذهب بثوابها ، وذلك أنهم يجيئون فى الآخرة وهم فى أشد الحاجة إلى ثواب ما عملوا فلا يجدونه ، وفى غاية العجز عن اكتساب ما ينفعهم ، فيصيبهم من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلى الله . فمثلهم مثل ذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته فى حال حاجته إليها ، وضرورته إلى ثمرها ، وضعفه عن عمارتها ، وفى حال صغر أولاده وعجزهم عن إحيائها والقيام عليها .

وبعد أن بين الله للمؤمنين ما ينبغى أن تكون عليه صدقاتهم ، وذلك بأن تكون خالصة لله لا يشوبها منّ ولا أذى ولا رياء ، وضرب لهم الأمثال ليعتبروا ، أعقب هذا بقوله « لعلكم تتفكرون » أى أن الله تعالى قد بين لكم حقائق الأمور وما فيها من خير وشر بالأدلة الواضحة البينة ، وضرب لكم الأمثال لتتفكروا فى عاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق السوى . فتضعوا نفقاتكم فى مواضعها التى يرضاها الله .

هـذا ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون من الصفات وقت البذل ، وهى الإخلاص لله فى أداء الصدقة ، وأن يتثبتوا من أنفسهم أن عملهم خالص لله

أما المال المنفق فقد وصفه الله فى قوله : « يأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » (٢٦٧) . والطيب : هو الجيد الذى تستطيبه النفس . والخبيث : هو الردىء الذى تكرهه .

مكتبتنا العربية

وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما نقل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجمهور من أئمة التفسير ، كما فى تفسير الطبرى والقرطبى . أما ما نقل عن ابن زيد بن أسلم من أن المراد بالطيب الحلال ، وبالخبيث الحرام ، فلا يظهر وجهه ، لأنه لا يتفق مع نظم الآية فى قوله « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ولا مع ما ورد من الآيات الأخرى ، مثل قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقوله : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » ، لأن المعنى حينئذ : ويحل لهم الحلال ، ويحرم عليهم الحرام ، وهو من تحصيل الحاصل ، ولا يتفق مع ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية ، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من ردىء التمر .

فقد روى أن بعضهم كان يعزل الردىء من التمر ، حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه له فيما عليه من الصدقة ، فنزلت الآية . ومع هذا فالخطاب للمؤمنين ، والأصل فى أموال المؤمنين أن تكون حلالا ، وهم إنما خوطبوا بالإنفاق مما فى أيديهم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد بين الله فى الآية صفة المال المبذول فى الصدقة ، وهو أن يكون من طيب ما نكسب بعملنا ، كمكسب العمال والتجار والصناع ونحوهم ، ومن طيب ما تخرجه الأرض لنا من الزروع والثمار والمعادن والركاز وغير ذلك مما تحويه الأرض .

وقد نهانا الله تعالى فى الآية عن أن نعمد الى الردىء من أموالنا فنبذله فى الصدقة .

أما المال المتوسط بين الجودة والرداءة ، فالآية لا تمنع من بذله ، ولكن بذل الجيد أفضل ، لأن الصدقة قربة الى الله ، وخير ما يتقرب به الى الله أجود الأموال وأفضلها ، هذا إذا كان بعض المال جيدا وبعضه رديئا فقصد الى الردىء فأخرجه فى الصدقة وأبقى الجيد لنفسه ، أما إذا كان كل ماله دون الجيد أو كان الحاضر منه كذلك فتصدق منه كان عمله محمودا عند الله تعالى لأنه أنفق مما أعطاه الله من فضله ولم يبخل .

مكتبتنا العربية

وفى قوله تعالى : « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ما يشعر بالتقريع والتوبيخ لمن يتصدقون من ردىء أموالهم . أى كيف تعمدون الى الردىء من أموالكم تتصدقون به وأنتم لا ترضون مثله لأنفسكم فى معاملاتكم إلا إذا أغضيتم النظر عما فيه من العيب تساهلا منكم !

ثم قال تعالى : « واعلموا أن الله غنى حميد » أى دعوا هذا المال الخبيث الذى لا خير فيه فالله غنى عن صدقاتكم وعن غيرها ، وإنما دعاكم الى بذل الصدقة من طيب أموالكم ليغنى به عائلكم ، ويقوىَ به ضعيفكم ، ويجزل لكم به فى الآخرة مثوبتكم ؛ فهى لخيركم ومصلحتكم ، لا من أجل حاجته إليكم . وهو المحمود الواجب شكره على ما هداكم إليه من الخير ، وعلى ما تفضل وأنعم به عليكم .

ولما رغّب الله المؤمنين فى أن تكون صدقاتهم على الفقراء وفى سبيل الخير العام من خير ما يملكون ، ونهاهم عن التصدق بالخبيث ، لفتهم الى ما يعرض للنفوس من الوساوس التى تُخَيِّل لها أن الانفاق يفضى الى ضياع المال وسوء الحال ، وأن الخير فى إمساكه ليكون عدة المستقبل عند الحاجة إليه ، فقال : « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (٢٦٨) » .

والمعنى أن الشيطان يعدكم الفقر ، أى يخوفكم منه ويخيل إليكم أن الإنفاق فى سبيل الخير يذهب بالمال فلا تجدونه وقت حاجتكم إليه ، ومع هذا هو يأمركم بالفحشاء ، وهى المعاصى ، ويغريكم بالإنفاق فيها . أو المعنى أنه يخوفكم من الفقر ويأمركم بالفحشاء أى البخل ، أى ويغريكم بالبخل إغراء الآمر المأمور . والفاحش عند العرب البخيل ، كما فى قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفـــاحش المتشدد

ويقابل وسوسة الشيطان بالخوف من الفقر والإغراء بالبخل ، وعدالله لنا بأن الإنفاق فى سبيل الله ومواساة الفقراء ، كل بحسب مقدرته وسعة حاله مع الابتعاد عما يذهب بثمرة الصدقة من المن والأذى والرياء ، سيكون منه الخير العام لنا فى الدنيا والآخرة . فى الآخرة غفران الذنوب وتكفير الخطايا ،

مكتبتنا العربية

وفى الدنيا ما يخلفه الله علينا من فضله ، وهو واسع الفضل ، يحقق ما وعدنا به ، وهو عليم بما ننفق ، يحصيه ويجزى عليه .

وقد جاء فى الكتاب الكريم « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه » وهو خير الرازقين ، وفى صحيحى البخارى ومسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » . أى أذهب ماله إلى حيث لا خير فيه . فالله تعالى وعد المتصدقين بأنه يخلف عليهم ما تصدقوا به ، ولكن ما يخلفه الله ليس ضروريا أن يكون من نوع ما أنفقوا ، بل قد يكون من الأمور المعنوية التى يحبها الإنسان ويراها خيراً من كثير من المال وذلك كالذكر الحسن الذى يحصل لأهل البر والاحسان بين مواطنيهم ، أو حب الناس لهم ، وتعلق القلوب بهم ، وكأن يرزقهم الله ذرية نافعة لخير الدين والدنيا ، ونحو ذلك من الأمور المعنوية التى يحبها الناس وليست بمال .

وقد يكون ما يخلفه الله من الأمور المادية ، وذلك بأن ييسّر الله للمنفقين طرق الرزق ، ويبصّرهم بالعمل الذى يُدرُّ عليهم المال الذى يخلف الله به ما أنفقوا أو يزيد ، أو يرزقهم بما لا يكون فى الحسبان مما ليس لهم فيه كسب ، كالمال الذى يجىء من طريق الميراث أو الهبات أو الوصايا أو غير ذلك .

ويدخل فى عداد البر والإحسان الذى يخلفه الله على المنفقين ، ما ينبغى أن يقوم به أصحاب الشركات وكبار الملاك من البر والإحسان نحو عمالهم الذين يعملون لهم ، بما يدفع حاجة هؤلاء العمال ويصلح شئونهم المادية والصحية والاجتماعية لأن إنفاقهم فى هذا السبيل هو من باب الانفاق فى الخير العام للأمة ؛ لأن العمال جزء منها ، والأمة كل يتكون من عدة أجزاء إذا صلحت صلحت الأمة كلها . فلينفقوا ، وليبروا عمالهم ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك حق لهم ما وعدهم الله به من فضله عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفضل الله عليهم قد يكون من طريق الإرشاد والهداية إلى أقوم الطرق وأصلحها للإنتاج والنجاح فى العمل ؛ وقد يكون من طريق ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، وهو النظام الذى سنه الله فى هذه الحياة . وذلك لأن إصلاح

مكتبتنا العربية

شأن العيال والإحسان إليهم يغبطهم ويحبب إليهم الملاك ، فينشطون إلى العمل بنفس قوية ، رائدها الإخلاص ، والإنسان عبد الإحسان ، فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة بما لا يقاس معه المال الذى أنفق فى سبيل البر والإحسان إلى العيال .

وهذا فضل الله الذى يخلف ما أنفقوه . والله واسع الفضل ، عظيم الخير .

هذا وعد الله ، وذاك إغواء الشيطان ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ،

قوتان تلمسان بالنفس عند نزوعها إلى عمل الخير : وسوسة الشيطان وهى قوة الشر التى تخوّف من الفقر وتأمر بالفحشاء ، وإلهامات الرحمن وهى قوة الخير التى تدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله ، حيث يكون فضل الله ومغفرته .

وفى صحيح الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » واللمة هى الهمة والخطرة التى تقع فى القلب ، فما كان منها من خطرات الخير فهو من الإلهامات الإلهية ، وما كان منها من خطرات الشر فهو من الوساوس الشيطانية .

فيأيها المؤمنون : إذا ألمت بكم قوة الخير فاحمدوا الله عليها ، وإذا ألمت بكم قوة الشر فاستعيذوا بالله من الشيطان ، وتحصنوا بحمى الله منه ، وأقدموا على فعل الخير ، وعودوا أنفسكم عليه ، حتى لا تُلِمّ بقلوبكم خطرات الشيطان ولا وساوسه وهواجسه .

وأنتم أيها الباخلون : راجعوا أنفسكم ، وحاسبوها ، وانظروا أين تضعون ثقتكم ، أفى وعد الله تعالى أم فى وساوس الشيطان ، وأى الأمرين تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه قلوبكم : وعد الله لكم بالخير أو إيعاد الشيطان لكم بالشر وقد ظهر الحق ووضح الطريق .

مكتبتنا العربية

وقد أرشدنا الله تعالى بقوله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) ، إلى أن ما يقع فى قلوبنا من الوساوس والهواجس الشيطانية ، والإلهامات الإلهية ، ويشتبه الأمر فيه علينا ، إنما يتميز بالحكمة التى يوفقنا الله للحصول عليها . والحكمة هى العلم الذى تعظم منفعته ، وتجلّ فائدته ، وهو العلم الذى يكشف حقائق الأشياء ، ويفرق بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار ، ويميز الإلهامات الإلهية من الوساوس الشيطانية ، ومن يؤت هذا العلم النافع الذى تجلّ فائدته فقد أوتى خيراً كثيراً ، ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، الذين فتح الله قلوبهم للتقوى ، وأعدهم لقبول الهداية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ليس من هنا نبدأ

ليس من هنا نبدأ ، لأننا بدأنا فعلا من حيث يجب أن نبدأ ، وقد قطعنا مرحلة من الطريق التى يجب أن تسلك . فإن استعرض الباحث ما كنا عليه من حياتنا الاجتماعية والعلمية والعملية ، رأى رأى العين صدق ما نقول ، واستطاع أن يقدر ما قطعناه من الطريق فى كل وجهة من وجهات الحياة الأدبية والمادية .

فقد أدركنا أن أساس الحياة العلم والعمل فاندفعنا فى سبيلهما بقدر ما تستطيعه وسائلنا المادية والمعنوية ، فإن كنا لا نزال متأخرين عن الأمم التى تعتبر مُثُلا عليا فيهما ، فما ذلك إلا لأننا بدأنا بعدها ببضعة قرون ، فإن دأبنا وضاعفنا جهودنا فلا شك فى أننا مدركوها وسائرون إلى جانبها وربما سبقناها ولا حرج على فضل الله .

فيجب علينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن ندرأ عنا شيطان العجلة فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى .

نعم أن الغيرة الوطنية تشتد فى بعض النفوس فتحتقر جهود الأمة التى تبذلها لتلحق بالقافلة ، فتشدد وطأتها فى النعى على بطئها وترددها ، وفى التشهير بتؤدتها وتوانيها ، وهذه النزعة الحماسية من تلك النفوس تضر أكثر مما تنفع ، فهى تغذو مادة اليأس فى قلوب الضعفاء ، وتزيد من عديد الجامدين على القديم منهم ، ولو تأمل هؤلاء المتحمسون منا لرأوا أن الأمة بجملتها استقامت فى طريق الذين سبقوها وترسمت خطاهم ، وتشبعت بفكرة اللحاق بهم ، وهى نزعة إذا سلمت من المثبطات أدت بأهلها إلى اللحاق بمن سبقوهما ، لأنها تسلك طريقا عبّدها من تقدمها فكفيت مؤونة التعبيد والتمهيد ، وهما من أشد القواطع للسالكين ، فتقطع فى الزمن القصير ، ما كان يضطرها للصبر الطويل ، وبذل الجهد الجهيد . وفى ضرب المثل بالأمة اليابانية مقنع .

فقد كانت هى والصينيون على مدنية عريقة فى القدم ، ولكنها كانت مدنية صناعة دقيقة وتفكير عميق ، ليس لقوتى البخار والكهرباء فيها من نصيب . فتنبه

مكتبتنا العربية

اليابانيون لذلك منذ نحو مائة سنة ، فاستخدموهما فلم تمض عليهم بضع عشرات من السنين حتى ارتقوا إلى مصاف الأمم الأوربية ، واحتذت حذوها الأمة الصينية ، فبلغت مكانة فيها . ونحن بعد فترة قصيرة من الزمن نستكمل فيها تعميم التعليم ، ويكثر بين ظهرانينا المتعلمون الذين لا يجدون عملا ، فيضطرون بحكم الضرورة الحيوية للبحث عن عمل يحصلون من القيام به ما يسد حاجتهم المعيشية ، وكلما اشتد بهم الضيق تشددوا فى تركيز قواهم العقلية فى ابتكار ما يوصل إلى كسب القوت من عمل يثيب الناس القائم به ، فتتفتح أمامهم ضروب الحاجات المعيشية والصناعية ، فيضطروا للاشتغال بها ، ولكنهم بسبب تفوقهم فى القوة الفكرية يعملون عقولهم فى التجديد والابتكار فيصلون بها إلى درجات رفيعة مما يرقى ذوق المجموع ويجمل مظهره ، ومنهم من يتوصل إلى اختراع أداة يصل من ورائها إلى أبعد حدود الثروة ، ويكون قدوة لغيره فى إدمان التفكير فى خدمة المدنية . وبازدياد عديد المفكرين من هذا القبيل تزداد قيمة الأعمال الحرة والعاملين فيها ، ويتمنى الذين يجرون وراء الوظائف الديوانية لو أتيح لهم أن يكونوا من قبيل هؤلاء الأحرار النافعين .

على هذا الوجه بدأت الحال فى أوربا ، وقد بلغت اليوم أوجها الأعلى ، فمن هؤلاء الرجال من لو بذلت له الحكومة مالا جما ليشغل وظيفة فى إحدى مصالحها ، بل لو عرضت عليه وزارة من وزاراتها لأبى ذلك عليها ، لثقته بأنه يعمل عملا أشرف من عمله فى وزارة وأنفع منه للأمة .

على هذا الوجه ترتقى الأمم ، وتبلغ أقصى الغايات فى المدنية ، وليس بلوغ هذه الغايات بوقف على جنس من أجناس البشر ، ولا على قبيل منهم ، فجميعهم سواء فى الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الحياة ، وقد وصل معظمهم اليها فى مدى وجودهم . فالذين يقولون بوقف هذه الغايات على بعض الأجناس دون البعض الآخر واهمون .

فمن الذى يصدق الآن أن الأوروبيين الذين تضرب بعظمة مدنيتهم الأمثال ، كانوا قبل بضع مئات من السنين فى حالة من الانحطاط يصعب تصديقها الآن . فقد كانوا يبنون بيوتهم بالحلفاء ويلطخونها بالطين ، ولا يجعلون لها مداخن

يتسرب منها الدخان . وكانوا يرمون فضلات النباتات واللحوم التى يتغذون بها أمام الدور فيتراكم عليها الذباب ، وتتصاعد منها الروائح الكريهة . وكانوا يضطهدون النساء ويضعون على أفواههن الاقفال ليمنعوهن من الثرثرة والقيل والقال . وكان رجال الدين عندهم يضطهدون من يظهر منهم ميل إلى الفلسفة أو العلم ، ومن كان يثابر على الاشتغال بشىء من ذلك ، وفيها ما ينافى ما عندهم من كروية الأرض وصغر حجمها بالنسبة لغيرها من الكواكب ، يلقونه فى النار بحجة أنه مناهض للكتب الدينية ، فأحرقوا على هذا الوجه أكثر من ثلاثمائة الف عالم ومتعلم بهذه الحجة ، حين ثبت لهم أنهم يدأبون على ماهم عليه ، لمنافاته للدين فيما يزعمون .

أما الصنائع والفنون فكانوا منها فى الحضيض . قلنا فمن يصدق أن هذا كان ماضى أوروبا قبل بضعة قرون ، وهو يراها اليوم صاحبة الزعامة العلمية ، ورافعة علم المدنية فى جميع الآفاق ؟

فالأمم تنحط وترقى ولا علاقة لذلك بجنس أو لون أو مناخ . أليس العرب الذين كانت تضرب بجاهليتهم وأميتهم الأمثال هم الذين أحيوا موات العلم بعد دخولهم فى الإسلام ، ورفعوا علم المدنية ، وآخوا بين الدين والعلم مؤاخاة لاانفصام لعراها بفضل هذا القرآن ؟

محمد فريد وجدى

وصف حصان

ما مقرف يختال فى أشطانه ... ملآن من صلف به وتلهوق
تغرى العيون به ويفلق شاعر ... فى نعته عفواً وليس بمفلق
قد سالت الأوضاح سيل قرارة ... فيه فمفترق عليه وملتق
صافى الأديم كأنما ألبسته ... من سندس ثوباً ومن إستبرق
مسرد شطر مثل ما اسود الدجى ... مبيض شطر كابيضاض المهرق
فكأن فارسه يصرف إذ غدا ... فى متنه لبن الصباح الأبلق
أمليسه أمليـــده لو علقت ... من صهوتيه العين لم تتعلق

مكتبتنا العربية

التفسير

بقية تفسير سورة الفاتحة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد حسن

عضو جماعة كبار العلماء

قد انتهينا فيما سبق من التفسير إلى قوله تعالى ، إياك نعبد ، فلنبدأ فى الكلام على بقية السورة فنقول : إلى هنا قد تم بالآيات السابقة إذعان العبد بأن أولاه وآخرته إنما هما لله ، وأنه تعالى المنفرد باستحقاق الحمد والتقدير لأنه وحده الممد للعبد بالوجود والمتعهد له بالتربية والمفيض عليه فى كل أطواره .

واسع رحمته والمجازى له على عمله يوم الجزاء على الخير خيراً وعلى الشر شراً ، فهو المهيمن عليه وهو مالك أمره فى حياتيه . هنا وقد تم ذلك ، أدرك العبد ألا مناص من الله تعالى إلا إليه فهو المرجع وإليه المصير .

وهنا وقد ملكت نفسه موجة من هذا الشعور كان لابد أن يسائله خاطره إذا كان ذلك شأن الله فى رحمته وعظمته وملكه لكل شىء فهل هناك فى الوجود من يستحق أن يعبد ويقدس وأن يعظم ويكبر سوى من ذلك شأنه . ويكون جوابه هذا السؤال حتما أنه تعالى وحده دون سواه هو المستحق لأن يفرد بالألوهية ويختص بالعبادة ويصور ما اقتنعت به نفسه من الحق المبين وما امتلأ به قلبه من نور اليقين بقوله « إياك نعبد » مما يفيد فى الأساليب العربية اختصاصه بالعبادة أى يارباه يامن تولانى برعايته وغمرنى برحمته يامسبغا على نعمه وناشرا حولى رحمته يا مالك شأنى كله فى أولاى وآخرتى إن لك وحدك التقديس وإن لك وحدك العبادة والتنزيه فلا إجلال إلا لك ولا تعظيم لسواك .

ولما دفع العبد إلى الإقرار بوجوب إفراد ربه بالعبادة ما ذكره له تعالى

مكتبتنا العربية

من عظيم النعم وواسع الرحمة ، وما أيقن به مما سيقام يوم الجزاء من موازين العدل التى لا يضيع معها على العبد أوله مثقال ذرة من خير أو شر .

هنا وقد دفعه ذكر ذلك إلى القيام بواجب المنعم الرحيم والمجازى العادل وجد أن ما يقوم به من عبادة مهما أخلص فيها وأطال فليس موفيا حق الله عليه فلم يبق أمامه من سبيل يسلكه للوفاء بحق ربه أو المقاربة من الوفاء إلا أن يسأله تعالى المعونة حتى يوفى أو يدانى الوفاء وإذ ذاك يقول « وإياك نستعين » .

أى لا أطلب إلا منك المعونة فأنت القدير على كل شىء والعليم بباطن الأمور وظاهرها لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نية فإمدادك أنت هو الإمداد ومعونتك هى المعونة .

وهنا يدور بنفس العبد حين يملك نفسه هذا الشعور ويستغرق فى ذكر عظمة الله ورحمته - سؤال - إذا كنت لا تسأل غيره المعونة ففيم تسأله المعونة أفى شأن دنياك وشخصك أم فى شأن آخرتك وربك ، وهنا يكون الجواب ببيان ما يسأل العبد ربه فيه وأن أحب شىء إليه إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصله إلى أسمى غاياته وأعظم مقاصده فيقول « إهدنا الصراط المستقيم » .

أى اهدنا ربنا إلى ما يوصلنا إليك ، ودلنا على ما تحل به ساحة رضوانك ، وذلك هو الطريق المستقيم المفضى بنا فى اختصار إلى ساحتك وجنبنا معوج الطرق مما يبطىء بالسائر عن الغاية ومما قد يضل بالسائر عن المقصد .

وهنا إذ يشتد قرب العبد من ربه ، فيزداد احتياطه فيما يؤدى به إلى الغاية من واضح الطرق وقيمها ، تراه يزداد فى التحرى والاحتياط لذلك لم يكتف العبد بسؤال ربه الهداية إلى الطريق الموصوف بالاستقامة ، بل زاد فى بيانه فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم » وإنما اختار فى البيان أن يضيف الطريق إلى المنعم عليهم لمعنيين : أولهما هو إبراز نفسية المحب المخلص ، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه ، وتفعم قلبه ، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة ويفعم قلبه طمأنة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله من النبيين والصديقين والشهداء

مكتبتنا العربية

والصالحين ، كما فصل ذلك فى غير تلك الآية . وثانيهما : أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمامه فى رفقة من الناس صالحين وصحب منهم محسنين .

ولما كان قد يتسرب إلى عموم النفس لفظ المنعم عليهم للكافرين والمؤمنين والعاصين والطائعين ، فقد زاد فى تحديد المراد بوصف المنعم عليهم بأنهم « غير المغضوب عليهم » مبالغة فى التحديد وزيادة فى البيان حرصاً على من يتم بهم ومعهم استمتاعه بنعيم ذى الجلال ورضاه .

كما أنه زيادة فى التنصيص على تمييزهم عن غيرهم ممن غضب الله عليهم وممن ضلوا سبيل الرشاد ليكون فى ذلك إيماء إلى شدة حرصه على تجنب سبيل الضالين وإشارة إلى شدة الاحتياط لوضع الحواجز القوية لحفظ نفسه عن أن يفد عليها خواطر غير مرادة ـ وإن خرجت بعد ذلك ـ طريدة التأمل كما هو شأن أساليب القرآن فى أنها لا تدع احتمالا غير مراد يمر بالنفس ، كما أنها لا تترك معنى مراداً دون أن تمسكه فى النفس .

ذلك أن نعم الله منها ما قد تشمل الكافر والمؤمن . والعاصى والمطيع ، فقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » قد لا يمنع لأول سماعه أن يتسرب إلى الذهن شموله وعمومه ، فلدفع هذا الخاطر من أول الأمر جيء بذلك التحديد للمراد من المنعم عليهم ، وأنهم الفائزون بنعمة الرضا بما آمنوا واتقوا ، والمثابون بحسن الجزاء بما صبروا وأحسنوا . فليس المراد مطلق منعم عليه ، بل المراد من نعموا برضا الله وحسن جزائه .

ولما كانت المقابلة بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين ، فقد قدم الأول على الثانى فى الذكر . وإنما جمع بينهما لأن العبد كما قلنا آنفاً كلما اشتد قربه من ربه ، قويت حيطته لطريق فوزه وسلامته ، واشتد بغضه لمن لم ينالوا بالطاعة والتقرب رضا ربهم ، فكان عن ذلك المبالغة فى بيان كل من يقرب من ربه أن يجتنبه طريقهم باستقصاء عناوين الطوائف الذين حادوا عن الجادة ولم يهتدوا سواء السبيل .

ومن هذا تدرك ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من تصوير الفطر السليمة فى تدرجها فى الاتصال بربها وتريثها فى ما تطلبه إليه وفق قربها منه وقوة علاقتها به .

مكتبتنا العربية

فإن الفطر إذا سلمت وحاطها من الشئون ما يعود عليها بالصقل والاستنارة ترى أنها أول ما تشعر به هو ما تحسه من نعمة وما يحوطها من رحمة يبعثها نحو الثناء على الله وحمده لما تدركه من حياطتها بصانعه منذ تكوينها من الطين إلى أن بلغت مبلغ التفكير والاستنتاج وترتيب المعلومات فهى إذ تدرك نشأتها وتنقلاتها فى حياطة ربها وفى صيانة من رحمته تنبعث إلى اختصاصه بالحمد والثناء فإذا اتسع أفقها فى التفكير وانبعثت إلى الخلوص من حيرتها فى أن هذا العالم علويه وسفليه وما احتواه من أنواع وأجناس من ناطق وغير ناطق كيف يكون ذلك النظام البديع والملك المتقن إنما هو لتلك الأيام المعدودة التى تنتهى بموت الناس وفنائهم . هذه الحيرة وذلك التردد يبعث النفوس إلى الحكم بأن وراء تلك الحياة حياة أسمى من تلك الحياة وفيها يتفاوت الناس وفق تفاوتهم فيما أتوا فى حياتهم من سيء أو حسن ومن خير أو شر . ذلك هو يوم الدين يوم الجزاء العادل يوم إقامة الموازين . فإذا بلغت الفطرة ذلك وأن هناك حياة أسمى من تلك الحياة فيها المقارنة العادلة بين أفراد البشر التجأت الى التقرب من خالقها حتى تؤدى واجب النعم فى الدنيا وتحظى بالجزاء الحسن فى الآخرة ، فيعلن فى خضوع أنها تعبده وتقدسه ولا تعبد غيره ولا تقدس سواه وإذ تحس الفطرة بواجب العبودية وأنه عظيم قد لا تستطيع له أداء أضطرت إلى سؤال معونته تعالى فإذا عبدت وسألت المعونة اشتدت حيطتها فسألته تعالى الهداية إلى أوثق طريق يؤدى للغاية طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين . وبهذا تكون سورة الفاتحة قد أجمل فيها كل ما جاء مفصلا فى الكتب السابقة وفى القرآن فإنها لم تعدُ شرح ما لله من نعم توجب حمده وبيان وعد ووعيد يوجب اتقاءه وخوفه كما يوجب الرغبة فيه والسعى فى سبيل رضاه ورسم طريق لما يؤدّى به واجب العبودية وما توفى به مظاهر التقديس مبينة طريق الحق الذى سلكه الفائزون وسار عليه المحسنون .

نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين ؟

مكتبتنا العربية

بهاء الدين السبكى

للفضيل الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغى

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حقبة طويلة من الزمن وطلبتهم مناصب الفتيا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عندهم معين صاف من العلم يرده الظامئون المتعطشون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يعرض لهم من حوادث الزمن وما هم فى حاجة اليه من حكم الشريعة الغراء .

وهذا بهاء الدين رابع اللذين السبكيين واسمه محمد بن عبد البر بن يحيى بن على ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكى المكنى بأبى البقاء كانت ولادته سنة سبع وسبعمائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعى كعلماء أسرته وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقى الدين السبكى الذى لازمه ملازمة طويلة فى أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه الآخرين الحجار والدبوسى وعبد الله بن على الصنهاجى والمزى والبرزالى والجزرى وعلاء الدين القونوى والقطب السنباطى ، وقد مهر فى اللغـــة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام . ولما ثبتت قدمه وتم نضجه العلمى واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها وذويها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكمال التحصيل تصدر ـ على عادة الشيوخ ـ للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عذبا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة . وقال صاحب الدرر الكامنة « وذكر لى الشيخ شمس الدين ابن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضج إذا توجه عليه البحث وغالب من لقيناه كان يبالغ فى وصفه بالتحقيق والحذق » وكانت له رحلات فى سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقى الدين سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وناب عنه فى قضاء الشام ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة فى القضاء فقد ناب عن القاضى عز الدين بن جماعة فى منصبه ثم أضيف اليه قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف ثم خلف عز الدين فى وظيفته سنة ست وستين وسبعمائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه

مكتبتنا العربية

من دربة وحنق وكياسة مع احاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضياً بدمشق إلى حين وفاته وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره وكان العماد الحسبانى يشهد أنه يحفظ الروضة وكان هو يقول عن نفسه أعرف عشرين علماً لم يسألنى عنها بالقاهرة أحد .

وقد أثنى عليه الذهبى ووصفه بأوصاف المبرزين فى العلم الخائضين لدقائق المسائل الغائصين فى بحار العلوم والمعارف . وقال عنه ابن حبيب : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضياؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماماً فى المذهب طرازا لردائه المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة فى التفسير واللغة والنحو والأدب ثقة فى الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهور فى البلاد والأمصار سالك طريق من سلف من سالفة الأنصار . درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد .

وهذه شهادة من ثقة تدل دلالة لاريب فيها على أن مترجمنا قد حاز الأوصاف التى تليق بالأئمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويطهرون أنفسهم ويسخون بما وهبهم الله تعالى من تفقه فى الدين فهم يجودون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد لكل من قرع بابهم وطلب منهم النوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية . وإن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه فى القضاء لدليل واضح على صلاحيته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير . وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبهم فى الحياة التوجه والارشاد والاندماج فى المجتمعات وتولى الشئون التى لاتستقيم أمور الأمة إلا بها .

وقد اختلفت كتب التراجم فى ذكر مصنفات له فيقول صاحب شذرات الذهب فى اخبار من ذهب طبعة مكتبة القدسى فى الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه « ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً » ويقول صاحب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند فى الجزء الثالث صحيفة تسعين وأربعمائة وما بعدها ما نصه « ولم يظهر له من التصانيف شىء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصلى ، وعلى المطلب لابن الرفعة » .

توفى رحمه الله بدمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٧٧هـ ودفن بسفح قاسيون بتربة السبكيين .

مكتبتنا العربية

المسلم والقرآن

للدكتور محمد يوسف موسى

بهذا العدد تختم المجلة عامها الحاضر ، وبهذه الكلمة أوشك أن أختم فترة - إن لم أقل عهداً - من فترات حياتي العلمية ، فليكن الحديث فيها على بعض واجبات المسلم بالنسبة للقرآن ، ولا عجب : فنحن في الشهر « الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

تحتفل مصر ، مثلها في هذا مثل كل بلد إسلامي ، بهذا الشهر المبارك بكلمات تنشر في الصحف وأحاديث تذاع بالراديو ، وإن كان الكثير من هذه الكلمات والأحاديث من المعاد المكرور الذي لا يكشف عن جديد ، ولذا نراها فقدت لذة الجديد وأصبح تأثيرها جد قليل .

على أن لرمضان وهو الشهر الذي اتصلت فيه السماء والأرض بنزول القرآن ، وهو الشهر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل وأذل فيه الشرك وأهله في غزوة بدر الكبرى ، من الجلالة والكرامة والمنزلة ما يوجب أن يكون احتفالنا به على نحو آخر غير ما ألفنا كل عام .

أريد أن أقول بأن رمضان وهو موسم خير وبركات يجب أن تتجدد فيه العزائم وتنعقد الإرادات على أن نكون خيراً مما نحن ، وعلى أن ننهض فيه لحياة عزيزة خير من الحياة التي نحياها الآن ؛ وهذا ما لا يكون إلا بعد أن نفهم القرآن حق الفهم ، وأن نتعرف ما جاء به من « هدى وبينات » ، وأن نلجأ إليه فنتخذ فيه مثال المسلم الكامل الذي يعرف مكانه في الحياة ومركزه في قيادة العالم .

١ — لقد آن « للمسلم » منذ زمن طويل أن يظفر بتفسير للقرآن يستغني به عن التفاسير التي ورثها عن القرون الوسطى والتي أصبحت لا تلائم روح العصر الذي نعيش فيه ، هذه التفاسير « المذهبية » والمليئة مع هذا بما لا يتفق مع الحق من الإسرائيليات وغير الإسرائيليات . نريد تفسيرا وسطا بين الإطناب والإيجاز

مكتبتنا العربية

تتجلى فيه روح القرآن العظيم ، عقيدة وتشريعاً وأخلاقا وتقاليد طيبة ، فى التمسك به عز الدنيا والآخرة ، تفسيراً يعرف منه المسلم أمور دينه ودنياه فى سهولة ويسر ، تفسيراً صالحا للنقل إلى كل لغات العالم الحية ليعرف غير المسلم ما هو القرآن وما هو الإسلام الذى يقوم على هذا القرآن .

مثل هذا التفسير أصبح ضرورة لازمة وفرضا على الأزهر ورجاله ، بل فرض عين على القادر منا بما وهب الله له من العقل النافذ والأسلوب الممتع العربى المبين ، ومكن له من قلوب الناس . متى ، إذاً ، نرى من يعكف على هذا المهم الجليل يقف عليه وقته وجهده ، ويخرجه للعالم أثراً يبقى على الزمن ؟ مثل هذا العمل الجليل يكون خيراً للإسلام والأزهر ولمن يقوم به من الاصطلاح بأكثر المناصب فى الأزهر ، ولعل الله يفتح له قلب من تعنيه بهذا الحديث لى هذه الناحية فيقبل عليه مصحوبا دائما بعون الله وتأييده ، وبخاصة وما ظهر له حتى الآن من دروس أو محاضرات فى التفسير يجعلنا نثق بأنه المرجى المأمول لهذا العمل الكبير .

والقرآن فيه ، مع هذا ، « هدى » فيما يختصم العالم اليوم بسببه من مشاكل السياسة والحكم والاقتصاد . إن فيه المذاهب المثلى فى كل هذه النواحى الحيوية ، وفيه ـ بصفة خاصة فى المشاكل الاقتصادية ـ المذهب الذى يحقق العدالة الاجتماعية كاملة بين أبناء الوطن الواحد . وكل ما علينا ، لنعرف هذا المذهب ، أن نقرأ القرآن لهذا الغرض ، وأن نتدبره حين نقرؤه ، وأن نضم للآية ما يتصل بها من حديث الرسول ، ثم نضم لهذا أو ذاك شواهد من التاريخ الإسلامى الصحيح فيها إيضاح وتطبيق لأصول هذا المذهب الذى يدعو إليه .

إنه ليس من الكرامة ولا من العقل فى شىء أن نولى وجوهنا شطر الغرب نلتمس لديه ما نحتاج من نظم سياسية أو مالية ، ولدينا القرآن لم نستخرج منه بعض ما يذخر به من كنوز !

سنجد إن درسنا القرآن هذه الدراسة ، أنه حين أباح الملكية الخاصة قد قيدها بقيود لا تبيح أن يكون منا من يملك الآلاف ومن لا يملك قوت يومه بانتظام ؛ وأن للفقراء فى الأموال التى تحت أيدى الأغنياء حقوقاً أخرى غير الزكاة المعلومة المفروضة ؛ وأن الإسلام حرص على أن يكون المجتمع الإسلامى كله متماسكا

مكتبتنا العربية

متضامناً ، لافرق بين المسلم وغير المسلم ، بحيث يجد كل من أعضائه العون حين الحاجة له من صغر أو زمانة أو كارثة حلت به مع الفقر ، وهذا مايسمى فى عرف الاقتصاديين المحدثين « بالضمان الاجتماعى » .

متى نعود للقرآن نتفهمه ونتخذه لنا مثالا ؟ متى يارب متى ؟ ومتى يصرف الشباب فى البلاد الإسلامية وجهه عن هذه الحياة التى يحياها ، ويولى وجهه نحو القرآن يتخذه إماما ؟

٢ — يرى شاعر الإسلام الدكتور « محمد إقبال » ، ورأيه الحق ، أن هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه ويفكر بعقله ، بل إن حياته عارية من الغرب فصار ظلا لأوربا . وهو فى ذلك يقول(*) :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ؛ مصقول الوجه ، مظلم الروح ؛ مستنير العقل ، كليل البصر ؛ ضعيف اليقين ، كثير اليأس هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال . ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، ويبن الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا . شباب ناعم رخو كالحرير ، يموت الأمل فى مهده فى صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية . إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم فى ذلك .

« عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لاتذوب بالمدامع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات . قلوبهم لا تتلق الخواطر ، وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة » .

٣ — هذا هو وصف شباب الجيل الحاضر فى رأى إقبال ، ويحسن بجانبه أن نذكر رأيه فى المسلم كما يجب أن يكون :

(*) هذه الأقوال وما يجىء بعدها عن الرسالة اللطيفة القيمة التى أصدرها هذه الأيام ضيف مصر الأستاذ الكبير أبو الحسن على الحسنى الندوى واسمها : « شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال » ، وهى رسالة يجب على كل مسلم استيعابها وتدبرها .

مكتبتنا العربية

« المسلم المثالى هو - فى رأيه - الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة .

« وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ؛ ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول .

« هذا المسلم - فى رأى إقبال - م يخلق ليندفع مع التيار . بل خلق ليوجه العالم ويملى عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله حتى يقضى الله فى أمره ؛ وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم الموج ويصلح الفاسد . وفى هذا يقول « إقبال » ، متمثلا : « سألنى ربى : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : فحطمه ولا تبالى ! » .

وأخيرا ، يرى « محمد إقبال » أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء الأقزام . وفى هذا يقول فى بعض شعره : « المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر . أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد » . كما يقول : « إذا أحسن المرء تربية شخصه ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه » .

وبعد : هذه الصورة للمسلم المثالى فى رأى إقبال ، مع بيان مكان هذا المسلم فى العالم ، ليس لنا فيه من فضل إلا فضل الناقل لبعض ما يستحسن ؛ لعل فى ذلك ما يفتح العيون النائمة ، ويسمع الآذان الصم ، ويهز القلوب التى جمدت مع الدهر لتخشع لذكر الله وما نزل من الحق . ولعل فى ذلك أيضا ما يلفت شبابنا عن الحياة الهزيلة الماجنة التى يحياها ، إلى الحياة الجادة الكريمة التى نرجوها له ، وبالله التوفيق ؟

مكتبتنا العربية

مذهب الامام مالك
فى الأندلس والمغرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

فتحت الأندلس والخلافة الإسلامية فى دمشق ؛ وإمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعى ؛ يتفقهون على مذهبه ، ويتعبدون على فروعه ؛ وإنما جند الأندلس شعبه من أهل الشام ، فكان طبيعيا أن يحملوا مذهبهم إلى مهجرهم الجديد ؛ فأقام الأندلسيون على مذهب الأوزاعى ، طيلة عهد الولاة ، وصدرا من عهد بنى أمية ؛ ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك ، فى عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل . (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) .

ولعل مرد ذلك التحول ، إلى ما حكاه العلامة ابن خلدون ، من أن رحلة الأندلسيين كانت ـ غالبا ـ إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ؛ فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم ، مالك بن أنس . وإلى أن البداوة كانت غالبة على أهل الأندلس فى أول أمرهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق ؛ فكانوا إلى أهل الحجاز أميل ، لمشاكلتهم لهم فى البداوة ، فلما تحضروا ، قاسوا الأمور بأشباهها ، وجروا فى التشريع مع العمران .

وقال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما ، بالرآسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله فى الدولة الإسلامية : من أقصى المشرق ، إلى أقصى عمل افريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .

ومذهب مالك عندنا بالأندلس : فإن يحيى بن يحيى الليثى صاحب الإمام مالك [1] كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلى قاض

---

(١) توفى سنة ٢٣٤ هـ .

مكتبتنا العربية

فى أقطار الأندلس ، إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ؛ والناس مراع الى الدنيا ؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ؛ على أن يحيي لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ؛ وكان ذلك زائدا فى جلاله عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه لديهم .

وكان القضاة مأمورين بالحكم بمذهب مالك ، لا يجوز لهم أن يقضوا بغيره ، وإن خالف رأيهم واجتهادهم .

فمنذر بن سعيد البلوطى (٢٢٣ — ٣٣٥) قاضى الجماعة ، قاضى القضاة ، لعبد الرحمن الناصر ، ٣٠٠ — ٣٥٠ ، كان ظاهرياً ، يحتج لمذهب داود ويأخذ به فى نفسه ، فإذا جلس للقضاء ، قضى بمذهب مالك وأصحابه ، لأمر الخليفة بذلك ، وقد كانت هذه المسألة موضع نزاع بين فقهاء الأندلس ، انشعبوا فيه إلى فرق ثلاثة ، إحداها تصحح التولية والشرط ؛ والثانية تبطلهما ؛ والثالثة تصحح التولية ، وتلغى الشرط ، قياساً على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد إذا اقترن بالبيع .

* * *

ولما قامت دولة المرابطين بالمغرب (٤٤٨ — ٥٤١) وضم عاهلهم يوسف ابن تاشفين جزيرة الأندلس إلى ملكه (٤٨٥) اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء . فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، عهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة فى جليل ولا حقير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء فى عهده ، أعظم مما بلغوه فى الصدر الأول من فتح الأندلس ؛ ولم تزل أمور المسلمين راجعة إليهم ، وشريعتهم موقوفة عليهم ، طيلة حكمه ؛ فانصرفت إليهم وجوه الناس ، واتسعت مكاسبهم ، وكثرت أموالهم ، حتى قال فيهم الشاعر الجيّانى أبو جعفر بن البنى :

أهـــل الرياء لبستمونا موسكم ... كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيـــا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم فى العـــالم

يعرض بالقاضى ابن حمدين قاضى قرطبة للمرابطين . ثم يصرح بهجائه بعد ذلك فيقول :

مكتبتنا العربية

أدجال . أوان الخروج ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتفى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك استه ليثبت دعـواه فى تغلب !

وكان ابن حمدين ينتسب إلى تغلب . ولا تخفى قوة البيت الأخير ؛ وهو من قول جرير للأخطل :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

* * *

ولم يكن يحظى عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلا من عَلِمَ عِلمَ فروع مذهب مالك ، فتفقت فى ذلك الزمن كتب المذهب أو عمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بغض الفقهاء إليه علم الكلام ، فكان يصدر المنشورات إلى مختلف البلدان ، بمنع الخوض فى شىء منه ، وتوعد من يملك شيئاً من كتبه بالوعيد الشديد ؛ ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستئصال المال . لمن وجد عنده شىء منها !

* * *

ولما قامت دولة الموحدين . على أنقاض دولة المرابطين ؛ وتولى من عواهلها أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) وكان من الصالحين المتبتلين ، خامرته فكرة محو مذهب مالك من بلاد المغرب جملة ، كما خامرت أباه وجده من قبل ؛ فقد أخبر الحافظ بن الجد : قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هـذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ! أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فى أى هـذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؛ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى سنن أبى داود وكان عين يمينه ، أو السيف .

مكتبتنا العربية

فأمر أبو يوسف هـذا ، جماعة من علماء الحديث بجمع أحاديث المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسندا بن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى ؛ فى الصلاة ومايتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها ، داعيتهم محمد بن تومرت فى الطهارة ؛ فلما جمعوها ورفعوها إليه ، كان يمليها على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظها ، ويسنى عليه الجوائز من الكسا والأموال .

ثم تقدم بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيهـا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم ، فكان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، وتطلق فيها النار ، فى مختلف البلاد : فكان مما أحرق : مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وغير ذلك كثير . وكان تهديده المروع كافياً فى صرف وجوه الفقهاء عن البحث فى الفروع إلى طلب علم الحديث ، الذى كفل طلابه ، وقربهم ؛ ولما نمى إليه حسد الموحدين لهؤلاء الطلاب ، جبههم بقوله : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر ، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء — يعنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر ، فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون .

فعظم ذلك من أمرهم ، وحمل الموحدين على المبالغة فى برهم وإكرامهم .

* * *

وكان صلاح أبى يوسف هذا صلاح المؤمن المستنير المتثبت ، الذى لا تهفو به العاطفة ، ولا يميل به الهوى ، عن جادة الاعتدال ؛ روى أنه حينما حج ، اجتمع فى حجر الكعبة بالشيخ الصالح أبى العباس أحمد بن مطرف المرى ، فقال له : يا أبا العباس ، إشهد لى بين يدى الله عز وجل ، أنى لا أقول بالعصمة (يعنى عصمة محمد بن تومرت) وكان الموحدون على أنه الإمام المهدى المعصوم .

وقال بعض علماء جيان : لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وقعة الأرك التى أوقع فيها بالأذفنش ، قدمنى أهل جيان لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ماجرت به عادته ، فلما فرغت من جوابه ، سألنى كيف حالى فى نفسى ، فتشكرت له ، ودعوت بطول بقائه ؛ ثم

مكتبتنا العربية

قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام (يعنى ابن تومرت) فنظر إلى نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حكمك ان تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئا من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت ! .

وكتب قبل خروجه إلى بعض غزواته ، إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين وحملهم إليه . فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة ، كان يتقدمهم بين يديه كلما سار ، فإذا نظر إليهم ، قال لمن حوله : هؤلاء الجند ، لا أولئك (ويشير إلى الجيش) وكأنه فى هذا متأثر بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، حين لقى الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فيخبر أنه فى ناحية من الجيش ، متكئا على سية قوسه ، رافعا أصبعه إلى السماء ، ينضنض بها ؛ فيقول : لأصبعه تلك ، أحب إلى من عشرة آلاف سيف ! .

ولعل الغلطة التى يقف فيها التاريخ عاتبا ، بل غاضبا . تلك المحنة التى امتحن بها فى أيامه ، الفيلسوف الإسلامى العظيم أبو الوليد بن رشد : فقد ذكر المؤرخون : أن أبا الوليد كان يشرح كتاب الحيوان لأرسطاليس ، فقال عند ذكر الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ : وقد رأيتها عند ملك البربر ؛ ونمى ذلك إلى أبى يوسف ، فاضطغنها عليه ، إلى أن سعى به عنده بعض مناوئيه من أهل قرطبة ، ورفع إلى أبى يوسف ملخصات بخط ابن رشد ، يقول فيها حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة ، بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . فاستدعاه ، بعد ان جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة ؛ فلما حضر أبو الوليد رحمه الله ، قال له ، بعد أن نبذ إليه بالأوراق : أخطك هذا ؟ فأنكر ، فقال أبو يوسف : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة ، وإبعاده ، وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ، وتقدم إلى الناس بترك هذه العلوم جملة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب ، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبلة . ولكنه لما رجع إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، واستدعى أبا الوليد إلى مراكش ، للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر أبو الوليد رحمه الله إلى مراكش ، فمرض بها مرضه الذى مات منه سنة ٥٩٤ ، ومات أبو يوسف أمير المؤمنين بعده بيسير .

مكتبتنا العربية

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

عبدان - عبّادان

يتردد ذكر هذا الاسم فى هذه الأيام على صفحات صحف الأخبار وغيرها فى الحديث عن نفط (بترول) إيران .

فنى مقال « البترول فى إيران » المنشور فى مجلة الكتاب (جزء يونيه ١٩٥١) : « وبإيران أكبر معمل لتكرير البترول فى العالم ، يكرر يوميا نصف مليون برميل من الزيت الخام ، ويقع هذا المعمل فى عبدان على الخليج الفارسى » وفى « مصرى » يوم ٥ يونية سنة ١٩٥١ : « ونفى السيد فاطمى الأنباء المغرضة التى أذيعت عن وجود اضطرابات فى منطقة عبدان وخوزستان » .

وقد درج الناس على كتابة هذا الاسم بالصورة الأولى « عبدان » . وهذا خطأ فى الرسم . صوابه : عبّادان .

وعبّادان مدينة قديمة تقع فى رأس الخليج الفارسى ، وتنسب إلى عباد ابن الحصين الحبطى من قواد الحجاج . وقد ألحق بكلمة « عباد » المقطع « ان » ليدل به على النسبة ، فعبادان معناها فى هذا الاصطلاح : عبادى أو عبادية . ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى الكلام على هذه المدينة : . وأما إلحاق الألف والنون

أما بعد ، فاذا جرت عوادٍ بالسعد والنحس ، على مذهب الإمام مالك ، فطغى سلطانه حينا على العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعف شأنه حينا ، حتى كاد يمحى امحاء ؛ وعلى أبى الوليد بن رشد وفلسفته ، فسما مكانه وسمت ، عند أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : وهبط وهبطت إلى الحضيض ، عند ولده أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . أقول : لئن جرت هذه العوادى بالسعد والنحس ، كما جرت على كثير من عظماء العالم ورجال التاريخ ، لقد محت أيدى الزمن فضول الإسراف ، فاعتدل الغالى ، وارتفع الهابط ؛ وبقى مذهب مالك حيا ، وبقيت فلسفة ابن رشد حية ، لأن الحق والعلم لا يموتان ؟

مكتبتنا العربية

فهو لغة مستعملة فى البصرة ونواحيها : أنهم إذا سموا موضعا أو نسبوه إلى رجل يزيدون فى آخره ألفاً ونونا : كقولهم فى قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى إلى عبدالله : عبد اللاهان ، وأخرى إلى بلال بن أبى بردة : بلالان . .

لست أفيك حقك .

يكثر هذا الاستعمال فى هـذا العصر . فيقال : أنا عاجز عن شكرك على ما أسلفت من يد ، ولن أفيك — مهما اجتهدت — حقك .

وقد وقع هذا فى نثر الكتاب ، وشعر الشعراء .

فى مقال فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول سنة ١٣٧٠) فى الحديث عن القصصى الانكليزى العبقرى ، برناردشو : « ولسنا نستطيع أن نفى الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به شو اتجاها واقعيا » .

وفى ديوان لشاعر معاصر ذى خطر وشأن :

فلست أفيـك بعض المدح شعرا ولست أفيـك بعض المدح نثرا

وفيه : فاعذر فلست بمن تفيه قصيدة .

وفيه أيضاً : يا دسوقى لا يفيك مديحى .

وهذا الاستعمال لا تقره اللغة ، ولا هو يجرى على مناهجها . وإنمـا ينبغى أن يقال : لست أوفيك حقك ، وأفيك حقك ، من أوفى ووفى . وفى اللسان : « أوفى الرجل حقه ، ووفاه إياه بمعنى أكمله له ، وأعطاه إياه وافيا . وفى التنزيل العزيز : « ووجد الله عنه فوفاه حسابه » . ويقال: أوفيته حقه ، ووفيته أجره » وفى المصباح : « وقال الفارابى أيضا : أوفيته حقه ، ووفيتـه إياه ، بالتثقيل » فأما وفى فإنما يأتى لازما ، يقال : وفى بالعهد ، فهو وفى من قوم أوفياء ، على أن أوفى قد يأتى لازما كوفى ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمتـه كما وفى بقلاص النجم حاديهـــا

الرسالة الشوئية ، الشُوَية

وقع البحث فى النسبة إلى شو ، وهو الكاتب الانجليزى « برناردشو » الذى طبق ذكره الآفاق بمـا أبدع من قصص سارت مسير الشمس فى الشرق والغرب .

و « شو » هذا اللفظ يلحق بمـا وضع فى العربية على حرفين ثانيهما حرف علة ؛

مكتبتنا العربية

كلو ، وفى ، ولا . وتوجب قواعد النحو أن تزاد أمثال هذه الكلمات الثنائية عند النسب حرفا لتحور ثلاثية ، فيلحقها علم الإفاضة بعد اكتمالها . ومن الجلى أنه لا ينسب إلى هذه الحروف إلا بعد أن تجعل أعلاما على أنفسها أو على غيرها فإذا أكثر إنسان من لفظ لو صح أن ينسب إلى هذا اللفظ . وترى أن (لو) فى هذا الموطن علم على لفظها . وقد يسمى من يغلب عليه لو لوّا . ولو أريد إعرابها بعد التسمية فلا بد من ردها ثلاثية أيضاً .

وتثليث هذه الثنائيات بتضعيف الحرف الثانى ، فيقال : لو ، وفى . ومن شواهد ما نحن فيه قول الشاعر :

ألام على لو ، ولو كنت عالماً بأذناب لو لم تفتنى أوائله

وعلى هذا إذا نسب إلى لو قيل : لوى .

وعلى مثالها إذا نسب إلى (شو) قيل : شوى

ويرى بعضهم بدلا من تضعيف الحرف الثانى أن يزاد همزة ، أيا كان الحرف . فيقال فى النسب إلى لو على هذا : لوئى

وعلى غرار هذا يقال فى النسب إلى (شو) : شوئى .

وعلى هذا النهج جرى كاتب مقال « جبهة الشرق فى مهاتما الغرب » المنشور فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٧٠) إذ يقول : « وقبل أن نخوض فى جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التى كان لها أثر عميق فى توجيهه » .

وقد كان الوجه الأخير فى النسب موضع إنكار . ذلك أنك لا تكاد تجد فى كتب الصرف غير الوصية بتضعيف الحرف . ولكننا نرى فى شرح الرضى للشافية ٢/٦٠ : « ولوى ، ولوئى ، فيمن يكثر لفظة لو » وكتب الفضلاء المحققون للكتاب : « بعض النسخ سقطت كلمة (لوئى) ، والصواب ثبوتها . وأراد الشارح بذلك الإشارة إلى ما حكى عن بعض العرب : من أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة همزة على الإطلاق . فيقول : لائى ، وكيئى ، ولوئى ، وما أشبه ذلك »

وهذا الكلام مأخوذ من كلام الرضى [1] . وقد أحببت أن أسوقه لما فيه من تجلية البحث : « وإذا كان ثانى الثنائى حرف علة وجب تضعيفه إذا أعربته ، سواء جعلته علما للفظ أو لغيره ؛ نحو لوّ ، وفىّ ، ولا ، وهو ، وهى . تقول :

(١) ٢ / ١٤١

مكتبتنا العربية

هـذا لو ، وفى ، ولاء : زدت على ألف لا ألفاً آخر ، وجعلته همزة تشبيها برداء وكساء . وإنما وجب التضعيف لأنك لو أعربت بلا زيادة حرف آخر لسقطت [1] حرف العلة للتنوين ، فيبقى المعرب على حرف واحد ، ولا يجوز . . . . وحكى عن بعض العرب أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعـد حرف العلة الثانية همزة بكل حال ؛ نحو لوء ، وفىء ، ولاء ، والأول ـ أى التضعيف ـ أولى ؛ لكون المزيد غير أجنبى » .

هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء

يجرى هذا الأسلوب كثيراً فى معرض تقرير التماثل بين شيئين واستوائهما . وفيه تكرار سواء مقروناً بباء الجر . والمعروف فى اللغـة إفراد سواء . وبحسب المتكلم فى إفادة غرضه أن يقول : هذا الكتاب لهذا الكتاب سواءً . ويقال : الكتاب سواء ، والرجلان سواء فى العلم .

وقد وقع السؤال عن هـذا الأسلوب « سواء بسواء » ، وهل ورد فى المأثور عن العرب . والباحث لا يرى المعاجم اللغوية عرضت له . غير أنه جاء فى حديث الربا قوله صلى الله عليه وسلم : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وقد جاء هـذا الحديث فى مسلم وأبو داود ، بل قيل إنه فى الستة ما عدا البخارى . وإذا جاء الحديث بلفظ واحد مع تعدد رواته وطرقه ، قوى الظن أنه لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضعف احتمال الرواية بالمعنى فيه .

ونرجع إلى الحديث . فالمراد أن يباع المثل بمثله ، والسواء بسوائه . فالباء فى (بسواء) حرف جر أصلى ، هى باء المعاوضة والمبادلة . وهل يأتى هذا فى مثالنا : هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء ؟ وفى الحق أنه لا يظهر هنا معنى المعاوضة كما يظهر فى الحديث . وهذا يقودنا إلى القول بأن الأسلوب الجارى على الألسنة احتذى به الحديث فى غير دقة وسداد .

وقد خطر بالذهن أن الباء فى (بسواء) فى الاستعمال الشائع زائدة دخلت على سواء ، و هو توكيد لفظى ، كما تدخل على التوكيد المعنوى فى قولك : جاء زيد بنفسه ، وبعينه .

وهذا التخريج لا بأس به ، وإن كان يضعفه أن زيادة الباء يقتصر فيها على مواردها المسموعة ، وليس هذا الموطن منها . والله يتولانا بالهداية إلى الصواب .

---

(١) يجرى الرضى على تأنيث الحرف لتأوله بالكلمة ، ولذلك يؤنث الفعل له .